علامات الساعة

دراسة تحليلية

رفاعي سرور

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.
فمن أخطر ظواهر الفكر الجاهلي، سواء كان هذا الفكر ذا مظهرا دينيا أو فلسفيا، ظاهرة التأصيل الكوني للأفكار، إذ أن هذا التأصيل هو إثبات للعلاقة بين هذه الأفكار وبين النظام الكوني، ومن ثم فهو تأكيد لصوابها وشرعيتها، وذلك استنادا إلى ما ارتكز في النفوس من أن الحق لابد وأن يكون ملائما من كل جهاته لنظام هذا العالم.

وغالبا ما يكون هذا التأصيل في اتجاهين: الماضي «الجذور» والمستقبل «الامتداد»، ولعل من الأمثلة على ذلك هذه الزبالة الزائلة التي كانت تسمى «الشيوعية» والتي كان أصحابها يعتبرونها بداية التاريخ وختامه، وكان تأصيلهم الكوني لفكرة الشيوعية يعتمد على القول بصدور حركات العالم عن طبيعة المادة، وانحصار تلك الطبيعة في مبادئ أولية ثلاثة هي: مبدأ «تحول الكم إلى كيف»، ومبدأ «نفي النفي»، ومبدأ «وحدة المتناقضات»، واعتبروا أن ذلك الثالوث المادي هو الحاكم لظواهر الطبيعة ولحركة التاريخ الإنساني على حد سواء، وأنه قادر علي تفسير أيا منهما بحكم خضوع كل الظواهر له، وأن تحول نظام الإنتاج مثلا من الإقطاع إلى رأس المال ثم الشيوعية هو من جنس تحول صور الماء من الحالة الثلجية إلى المائية ثم إلى الحالة البخارية نتيجة تصاعد «كم» معين هو الحرارة، فهذا نموذج لربط (الفكرة الشيوعية) بنظام العالم، ويشاء الله العلي القدير أن تتبخر النظرية كلها بكل عصارتها المنتنة.

ولا شك أن الأديان الوضعية، من يهودية ونصرانية، هي أكثر إلحاحا في محاولة تحقيق الملائمة بينها وبين ظواهر العالم، وذلك أنها لما كانت ملتزمة بفكرة صدور العالم عن الله سبحانه، فهي من ثم ملتزمة بتفسير كل ما هو

في العالم بحسب عقيدتها المزيفة.

وستجد قراءات نصرانية لظواهر الطبيعة تستخدم كلها لتبرير اللاهوت المسيحي، فالثلج والماء والبخار الذي كان عند الشيوعية دليلا على مبدأ «تحول الكم إلى كيف» ستجده في النصرانية دليلا على وحدة الثالوث، وهكذا فبحكم الفطرة، تتسابق الأفكار الدينية وغير الدينية للتأكيد على وملاءمتها لخلق السماوات والأرض، أي للعالم.

ومن أهم لحظات العالم هي لحظة نهايته، وهي المعروفة بـ «الساعة» أو «يوم القيامة»، فشكل نهاية العالم ينبئ عن حقيقة «الإرادة» التي ستقوم بإنهائه، وعلى ذلك، فمن كمال فكرة ما عن العالم، أن تقدم تصورا لنهايته بحيث يلائم مضمون تلك الفكرة من جهة، ومعطيات الواقع من جهة أخرى. وهكذا يطرح التصور الإسلامي نفسه كصاحب حق شرعي ووحيد في تفسير العالم، باعتبار أن «علامات الساعة» تمثل جزءا أصيلا ضخما من تاريخ الأمة الإسلامية الباقية إلى آخر الزمان متضمنة ظهور العلامات. وهكذا تأخذ المواجهة مع أهل الكتاب صورة أخرى، وهو إخفاء ما عندهم من علم عن العلامات عن العقل المسلم بالذات حتى لا ينتبه هذا العقل إلى فاعلية تلك القضية في تحديد منهج الصراع معهم.

ورغم المحاولات المستميتة والمبذولة من أهل الكتاب لإخفاء تلك العلامات، إلا أن الله قد قدر كشفها، وعلى ألسنة من أسلم منهم، مثلما أخرج الخطيب في الرواية عن مالك أن عمر دخل على أم كلثوم بنت علي فوجدها تبكي فقال: «ما يبكيك؟» قالت: «هذا اليهودي (تقصد كعب الأحبار) يقول إنك باب من أبواب جهنم»، فقال عمر: «ما شاء الله»، ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه فقال: «يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة»، فقال: «ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟» فقال: «إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها، فإذا مت اقتحموا» [1].

---

(1) أخرجه أبو نعيم في :حلية الأولياء «6 / 203» مختصراً.

كما كانت هناك بعض التصرفات ذات الطبيعة العلنية الدالة على أنهم يتحركون بمقتضى تصورات خفية، مثل زراعة اليهود شجر الغرقد لأنه شجر اليهود، إذ إن جميع الشجر يدل المسلم على اليهودي الذي يختبئ وراءه في آخر الزمان عدا هذا الشجر كما في الحديث المتفق عليه والذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

وبمجرد انكشاف أخبار العلامات عند اليهود والنصارى، نفاجأ بالدقة المتناهية التي عندهم في قضية العلامات. فبعد موقعة أجنادين التي حارب فيها عمرو بن العاص الروم وانتصر عليهم، حاول عمرو فتح فلسطين، فكتب إليه الأرطبون بأنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فقال أصحاب الأرطبون: من أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد؟ فقال: صاحبها رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فعلم عمرو بكلام الأرطبون فكتب إلى عمر يقول له: إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً، وبلادا ادخرت لك، فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس (2).

وهذه هي الدقة المتناهية في تصور العلامات عند أهل الكتاب، أن يجزم الأرطبون أن بيت المقدس لن تفتح على يد عمرو، وإنها ستفتح على يد عمر، وقد علم الأرطبون ذلك من الاسم، والفرق بين الاسمين حرف واحد وهو الواو.

ومما جاء عن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قدم دمشق في تجارة من قريش فتخلف عمر بن الخطاب لبعض حاجته، فبينما هو في البلد إذا ببطرق يأخذ بعنقه، فذهب ينازعه فلم يقدر عليه، فأدخله داراً فيها تراباً وفأساً ومجرفة وزنبيل، وقال له: حول هذا من ههنا إلى ههنا، فغلبه عمر وخرج فجاء ديراً لراهب، فحبس عنده من العشي فأطعمه وسقاه، وقال له: لقد علم أهل دين النصرانية أني أعلمهم بكتابهم، وإني لأراك الذي تخرجنا من بلادنا هذه، فهل لك أن تكتب لي كتاب أمان على ديري هذا (3).

---

(2) «البداية والنهاية»، المجلد السابع: ص 54 – 55

(3) "البداية والنهاية" المجلد السابع ص 60.

وعن الأقرع مؤذن عمر أن عمر رضوان الله عليه مر على الأسقف فقال: «هل تجدوني في شيء من كتبكم؟» قال: «نجد صفتكم وأعمالكم ولا نجد أسماءكم»، قال: «كيف تجدوني؟» قال: «قرن من حديد»، قال عمر: «قرن من حديد ماذا؟» قال: «أمير شديد»، قال عمر: «الله أكبر والحمد لله» (4).
وعن عبد الله قال: ركب عمر رضوان الله عليه فرساً فركضه فانكشف ثوبه عن فخذه فرأى أهل نجران على فخذه شامة سوداء، فقالوا: «هذا الذي نجد في كتابنا يخرجنا من أرضنا» (5).

وعلى الرغم من هذه الدقة المتناهية التي يبلغ مداها الفارق بين عمرو وعمر، ويبلغ مداها شامة سوداء في الفخذ، فقد كانت النتيجة النهائية للتصرفات اليهودية والنصرانية في وقت الغفلة الإسلامية أن أصبحت العلامات محكومة بالإسرائيليات المطروحة للتضليل.

ولعل أخطر مؤامرات التضليل التي نعاني منها الآن هي التركيز الإعلامي النصراني واليهودي على علامة الدجال كما سنبين إن شاء الله.
والهدف من هذه المؤامرة هو تجاوز علامة المهدي، وخصوصاً بعد الانسياق وراء هذا التركيز من جانب الذين يكتبون في الإسلام أنفسهم.

ولم يكن هذا الانسياق هو الأثر الوحيد للتضليل اليهودي والنصراني عن قضية العلامات في واقع الفكر الإسلامي، بل أصبحت تلك القضية تعاني تجاوز التحكم العقلي في الطبيعة الغيبية للعلامات، كما أصبحت تفتقد العلاقة الصحيحة بين النصوص والواقع، حتى أصبح إسقاط نصوص العلامات على الواقع والأحداث خطأً شائعاً.

---

(4) أخرجه أبو داود «4656»، واللالكائي في شرح السنة «2658»، وأخرج نحوه الطبراني عن كعب وقال الهيثمي «66 / 9»: رجاله ثقات

(5) أخرجه ابن سعد «3248»، والطبراني وأحمد في الزهد ص:153، وقال الهيثمي في المجمع (91 / 9): رواه الطبراني وإسناده حسن.

وذلك كله في الوقت الذي يجب أن تكون فيه لقضية العلامات الأهمية الفكرية الأساسية والأولى، من حيث اليقين بما أخبر به الله على لسان رسوله ﷺ من أحداث حتى آخر الزمان، ومن حيث التوازن النفسي بين الإنكار الجاهل والتعجل السفيه لهذه الأحداث، ومن حيث إحياء نصوص الإخبار عن العلامات لتدخل في إطار التصور الإسلامي الصحيح عن الكون والوجود البشري، وكذلك تحديد الدور البشري في إطار أقدار الله النافذة في الواقع حتى قيام الساعة، ثم التحديد المنهجي للدعوة من خلال كل هذه الفاعليات مجتمعة.

ويمثل تحديد الدور البشري والتحديد المنهجي أهمية كبيرة باعتبار الإطار الواقعي للتحرك الإسلامي، وبعيداً عن التضليل اليهودي والنصراني في قضية العلامات، وبعيداً عن دائرة الغفلة عن التصور الصحيح للقضية، تنشأ فاعلية العلامات، ليكون التصور الصحيح للعلامات حاكماً للحركة الإسلامية بكل أبعادها وفي كل مواقفها.

ولإدراك أهمية التصور الإسلامي الدقيق للعلامات وعلاقته بالأحداث بصفة خاصة، علينا أن نقف أمام مثل تاريخي على هذه الحقيقة، ألا وهو توقف المسلمين عن الزحف إلى بلاد الترك عملاً بقول رسول الله ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم» (6).

فلما اعتدى خوارزم شاه على تجار جنكيز خان الذين يتبضعون له ثياباً وتحفاً، فأرسل خوارزم إلى نائبه أن يقتلهم ففعل ذلك، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: «ولم يكن ما فعله خوارزم فعلاً جيداً»، فلما تهدد جنكيز خان السلطان خوارزم أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم «وهذا أيضاً لم يكن فعلاً جيداً»، لأن التتر من الأتراك الذين سموا ذلك لتركه خارج سور ذي القرنين، والخطأ في فعل خوارزم هو في الأساس مخالفته لقول رسول الله ﷺ «اتركوا الترك ما تركوكم» (7).

---

(6) صحيح الجامع – رقم(3384)
(7) المصدر السابق.

ولذلك يذكر ابن كثير في عدة مواضع عند ذكر أحداث القتال بين المسلمين والتتار أن المسلمين لم يكونوا يتعقبون التتار إذا فروا هاربين أمامهم، حتى وإن كانت تنالهم الرماح، عملاً بالحديث، حتى نصرهم الله عليهم.
إن تحذير النبي لأمته بتجنب الترك كان أساساً لتحركها العسكري مدة طويلة، فلما تحرش المسلمون بالتتار مخالفين تحذير النبي ﷺ في غفلة منهم، جاءت العقوبة عنيفة باجتياح التتار لديار الإسلام في مشهدٍ مخيف نرى من خلاله خطورة تحذير النبي ﷺ، وعظم البلاء الذي جرته مخالفتهم للنبي ﷺ.
ومن هنا تأتي أهمية استحضار الإسلام لأرض الواقع في حياة المسلمين، واستحضار أحاديث النبي ﷺ لنرى من خلالها علامات الساعة من خلال تصور منهجي كامل.

ومن المثل التاريخي لتحكم تصور علامات الساعة في المجال العسكري إلى المثل الحاضر لتحكم تصور علامات الساعة في المجال السياسي، وهو النص الثابت عن رسول الله ﷺ: «ستكون خلافة على منهاج النبوة» [8]، وهذه الخلافة قبل المهدي.

وعندما يحكم تصور العلامات المنهج السياسي للدعوة[9] فإن السعي لإقامة هذه الخلافة سيتجاوز كل عقبة يتصورها إنسان ضد إقامة هذه الخلافة، ابتداءً من تهيئة العالم لظهور الدجال [10]، وهي المحاولة الخبيثة لمنع المسلمين من معايشة حقيقة الخلافة القادمة والتهيئة النفسية لها والسعي لإقامتها.

وبعد تجاوز التضليل اليهودي والنصراني، وتجاوز الغفلة عن القضية

---

(8) رواه أحمد والبيهقي في دلائل النبوة وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (5378).
(9) يراجع كتاب «التصور السياسي للحركة الإسلامية» للمؤلف
(10) والمجاراة في التركيز على الدجال والمسيح المنتظر ليساهم في هذه المحاولة ومروراً بالنظام العالمي الجديد الذي يريدون به إذابة كل الأنظمة واختزالها للنموذج الأمريكي، وهنا علينا أن نعي أننا على موعد مع الخلافة. وهي في= =قلب كل مسلم ولا تنتزع إلا بموته، لأنها خبر عن رسول الله ﷺ وخبر الرسول ﷺ لا ينتزع إلا بالموت، ستكون خلافة، هكذا تحدث الرسول ﷺ، ستكون خلافة، ليست على أساس الواقع المؤلم الذي نراه بل سيكون أساساً ربانياً يصنعه الله ويصلح به الدنيا ولا تسل عن الزمن، فإن المهدي الذي سيظهر بعد الخلافة سيصلحه الله في ليلة، ليلة، ليلة واحدة، وسيسبق تلك الليلة، خلافة قادمة، لن يصرفنا عنها تصورياً ولا عصبياً ولا نفسياً، علامة المسيح المنتظر، التي تحاول الجاهلية بكثرة الكتابة عنها انحرافنا فيها، لأن الخلافة قبل المهدي، والمهدي قبل المسيح.

بالطرح الإسلامي الصحيح لها، والانتباه لتحكم التصور الإسلامي للقضية في واقع الدعوة، يتكشف أجمل وأعظم ما في هذا التصور لقضايا العلامات، ولعل أول ما سنلاحظه في هذا الجمال العظيم المتكشف هو التجرد وموضوعية التناول:

وما نعنيه بالموضوعية هو أن الإسلام لم يتحيز إلى نفسه مستقبلياً، وإنك لن تدرك هذا الجمال إلا عندما تقارن بين التصور الإسلامي للعلامات وغيره من التصورات المصطنعة المكتوبة لحساب أصحابها في تحديد الرؤية المستقبلية لمصير العالم، ولعل معركة «هرمجدون» التي يتحدث عنها أهل الكتاب خير مثال على ذلك، وملخصها عندهم: أن المسيح سينزل ويقتل كل الوثنيين «غير المسيحيين»، ويرتفع بكل المسيحيين فوق السحاب؛ هكذا ينتهي التاريخ البشري، وتنتهي الحياة الدنيا، وتنتهي الحكمة التي من أجلها خلق الله السموات والأرض، بهذه الصورة الضئيلة الساذجة، المتحيزة.

التصور الإسلامي يقر بأن اليهود باقون إلى وقت الدجال وسيقاتلون معه، كما يقر بأن النصارى سيبقون كذلك حتى يحقق الله الغلبة للمسلمين عليهم في الملحمة.

ويكفي لإثبات جمال الموضوعية في التصور الإسلامي للعلامات أن نَصِفَ الملحمة كما وصفها الرسول ﷺ: «تصالحون الروم صلحاً آمناً وتقهرون أنتم وهم عدواً من ورائهم فتسلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تلول فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول: غلب الصليب، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله فعند ذلك تغدر الروم، وتكون الملاحم، فيجمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية مع كل غاية عشرة آلاف» [11].

وعن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيري فقال: «ألا يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة»، قال: فقعد وكان

---

(11) رواه أبو داود كتاب الملاحم «2 / 425»، والحاكم في المستدرك «4 / 1421» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

متكئا فقال: «إن الساعة لا تقوم، حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة»، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: «عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام، ويكون عند ذاكم القتال ردة شديدة»[12]، قال: «فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون ثم يبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتتلون مقتلة إما قال: لا ندري مثلها، وإما قال: لا يرى مثلها، حتى إن الطائر يمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتاً، فيعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقاسم»؟! قال: «فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس أكبر من ذلك، قال: «فجاءهم الصريخ[13] أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة»، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»[14].

إن النص يكاد ينطق بصوت مسموع بأنه من مشكاة النبوة، ففيه الإقرار بأن الروم سيكونون أكثر عدداً، وفيه الإقرار بأن المسلم قتل الصليبي الذي قال: «بهذا غلبنا»، وهو القول المناقض للهدنة التي كانت معقودة بحسب ما ورد في النصوص الأخرى' وفيه الإقرار بأنه ستكون ردة بين المسلمين، وفيه الإقرار بأن القوة بين الأمتين تكاد تكون متقاربة، وقد وضح ذلك من وصف المعارك، وذلك من خلال مجموع العبارات: «فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل» وتكررت ثلاث مرات، و«فيبقى هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب» ثلاث مرات، وفي الرابعة: تكون الغلبة للمسلمين على الصليبيين، ولكن وصف المعركة يبين خطورتها، يقول النبي ﷺ «حتى إن الطائر ليمر

---

(12) قول عبد الله بن مسعود القول عاد لرسول الله ﷺ.
(13) المستنجد الصارخ.
(14) مسند أحمد بن حنبل، رقم: (4001).

بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتاً»[15].

أما وصف نتيجتها فهو أشد: «فيعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقسم أو يقاسم»، كما تشعر بالدقة في النقل عن رسول الله ﷺ، مثلما قال الراوي: «فيقتتلون مقتلة إما قال: لا ندري مثلها، وإما قال: لا يرى مثلها»؛ فهكذا الخبر والوصف والدقة، وهكذا الموضوعية والإقرار والتفصيل، وهكذا يقبل الإنسان صيغة نهايته وأحداث آخر الزمان.

وفي أحاديث الملحمة نص يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»[16]، ويسمع العبارة عمرو بن العاص ويتعجب، ولكنه يصدق ثم يحلل العبارة بعرض لمقومات الأمة النصرانية والتي جعلتها باقية بهذا العدد حتى آخر الزمان وحتى الملحمة، يقول عمرو لراوي الحديث: «أبصر ما تقول»، قال: «أقول ما سمعته من رسول الله ﷺ»، قال: «لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحكم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك»[17]، وهكذا تحدث رسول الله ﷺ، وتحدث الصحابة في تفسير أحاديث رسول الله ﷺ، تجرد وصدق، ولعلنا نلاحظ قولة عمرو بن العاص في ذكر خصال الروم: «وخامسة حسنة جميلة»، وهذا هو الوحي وفهم الوحي وتفسير الوحي.

ولن نجد مثلاً أكثر تجردا وموضوعية في تفسير العلاقة بين الإنسان والكون من نفي النبي ﷺ أن يكون كسوف الشمس الذي كان في عهده بسبب وفاة ابنه إبراهيم، وعلى الرغم من أن الناس قد ربطوا بين الحادثتين فقالوا: ما انكسفت الشمس إلا لموت إبراهيم، فيقوم النبي ﷺ في الناس خطيباً فيقول: يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد، فكان نفي النبي

---

(15) مسند أحمد بن حنبل، برقم: (4001).

(16) رواه مسلم من حديث الليث بن سعد – كتاب الفتن وأشراط الساعة ح «2898»، وأحمد في المسند 4/ 230.

(17) أخرجه مسلم في: الفتن وأشراط الساعة «9 / 249 / ح 2898».

ﷺ أشد قوة من آية الكسوف ذاتها.

فلم يكن التجرد في تفسير العلامات كظواهر كونية غيبية، بل كان في الظواهر الكونية المشاهدة، وهذا هو التجرد الكامل في التفسير الإسلامي للكون بظواهره المشاهدة القائمة.

وسنبدأ الكتاب إن شاء الله بتعريف علامات الساعة، وهو التعريف الذي سيبقى معنا إلى آخر الكتاب، حيث سينتظم نص هذا الكتاب حول ألفاظ هذا التعريف. فالعلامة هي: «أفعال الله الجامعة في نهاية الدنيا وبداية الآخرة، تحقيقاً لإيمان الناس».

الباب الأول

الفصل الأول

**«تأصيل معنى العلامة من حيث علاقتها بأفعال الله
الجامعة التي هي: الحكمة والرحمة والإحسان والخير والحق
والعدل»**

علاقة علامات الساعة بالحكمة

وعلامات الساعة من أهم مجالات الحكمة الإلهية، وذلك أن أفعال الله دائرة على الحكمة، وإن اختلاف صيغ هذه الأفعال الإلهية بحسب المراحل الثلاث لا يوقف معنى الحكمة بل يظهرها أشد ما يكون الإظهار.

وحكمة العلامات عامة وتفصيلية؛ والحكمة العامة هي الحكمة منها، والحكمة التفصيلية هي الحكمة فيها، أما بالنسبة للحكمة العامة من العلامات، ففيها يقول ابن القيم: «قرأ قارئ:﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾(التكوير:1)، وفي الحاضرين أبو الوفا ابن عقيل فقال له قائل: (يا سيدي هب أنه سبحانه نشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس)؟ فقال: (إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه: لحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها، لانتقال الساكن منها، فأراد أن يعلمهم بأن الكون كان معموراً بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وبيان القدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأهل الإلحاد، وزنادقة المنجمين، وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالّها قد شققت، ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه كيف يشاء)»[18]، أما بالنسبة للحكمة التفصيلية فإنها ستتضح من خلال طرح العلامات.

---

(18) بدائع التفسير "ج3، ص:183، للإمام ابن القيم.

وأهم أمثلة الحكمة من العلامة من الناحية التفصيلية: جعل التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل بديلاً عن الطعام في سنوات ما قبل الدجال، وتفسير الحكمة في ذلك: هو أن الطعام ضرورة بشرية تثبت الافتقار إلى الله في الرزق، وقد كان هذا هو المنهج القرآني في إثبات عبودية عيسى ابن مريم عندما قال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:75).

في إثبات الإطعام لعيسى إثبات لبشريته ونفي الادعاء بألوهيته، لأن الله هو الذي ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام:14)، وفى ذلك تنزيه لله عن الافتقار للطعام، وهو معنى التسبيح، لأن التسبيح هو التنزيه، أما التكبير فهو إكبار الله على كل شيء، وعلى الدجال وفتنته، فالدجال أكبر خلق كما قال النبي ﷺ عن عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»[19]، ولكن الخالق أكبر، حتى عندما تقتضي فتنة الدجال هذه السنوات الثلاث من الجوع فإن الله أكبر، فلا يترك عباده المؤمنين نهباً لفتنة الدجال، بل يزيدهم إيماناً ويقيناً بإطعامهم الذكر، فيجري التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل مجرى الطعام.

أما التحميد: فهو دليل على أن التسبيح والتكبير أتم الشبع، فاستوجب الأمر حمداً لله كما نحمده على الإطعام في الدنيا.

أما التهليل فهو قول: لا إله إلا الله، ومناسبتها أن جميع ما يكون لا يخرج على أفعاله، فلا إله غيره، فالله هو الذي يظهر الدجال، وهو الذي يجعل السنوات قبله سنوات جوع، وهو الذي يجعل الذكر يجري مجرى الطعام لعباده المؤمنين.

---

(19) صحيح، أخرجه مسلم رقم 5244.

والحقيقة أن اختيار الذكر بصفة أساسية بديلاً عن الطعام هو أن حياة الإنسان إنما تكون بأمرين: الطعام والذكر، أما الطعام فأمر معروف، وأما الذكر: ففيه قول رسول الله ﷺ «مثل الذي يذكر ربه ومثل الذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت» [20]، فالحياة بالذكر والطعام.

ومن أمثلة الحكمة التفصيلية في العلامات أيضاً، جعل التهليل والتكبير سبباً في إسقاط جانبي مدينة القسطنطينية، لأن سقوط جانبي المدينة هو الذي يساوي الانتصار على أهلها، والنصر في القتال لا يكون إلا بأمرين: عقيدة صحيحة، وإكبار مطلق لله على العدو في النفوس.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا نعم يا رسول الله قال لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق فإذا جاؤها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، ثم يقولوا الثانية لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا» [21].

وتفسير وجه اختصاص بني إسحاق – السبعين ألفاً – بتدمير مدينة القسطنطينية هو أن بني إسحاق هم عرقياً أصل اليهودية والمسيحية، ولكنهم يختلفون عن اليهودية والنصرانية في عقيدتهم عن المسيح، فعلى الرغم من التوافق العرقي بينهما، كان الاختلاف بينهما في قولهم عن عيسى بأنه ابن زنى، أو ابن الله، وبذلك يتحقق فيهم، بمقتضى تقابلهم مع اليهود والنصارى، أحقيتهم في تدمير المدينة القائمة على العقيدة الباطلة عن عيسى.

علاقة علامات الساعة بالرحمة

وأصل الرحمة في العلامات هو العلامات ذاتها، ذلك لأن هذه العلامات ذكرى للبشر وتحقيق لليقين في قلوبهم، كما إنها ترجيح لصفة الخير في الوجود، ليبقى

---

(20) صحيح أخرجه البخاري، رقم (6407).
(21) صحيح مسلم، رقم (5204)

الوجود خيراً راجحاً حتى قيام الساعة، ودلائل هذا الأصل هي بذاتها تفاصيل هذه العلامات، فمن دلائل رحمة الله:

1-أن الساعة لا تقوم على مؤمن وهي داهية مُرّة [22] ، لأن الله سيقبض كل نفس مؤمنة بريح لينة تأتي من اليمين، أما الساعة فلا تقوم إلا على أشر الناس، عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد، والذين يشهدون بالشهادة قبل أن يسألوها» [23].

وهناك ملاحظة في هذا الحديث الأخير، وهي أن هذين الصنفين الواردين في الحديث هما أول الشر وآخره، لأن أول الشر هو اتخاذ القبور مساجد لأن هذا الفعل هو بداية اتخاذ المقامات وفعل الشرك مثل الطواف والنذر والاستغاثة وشد الرحال، وآخر الشر هو عبادة الأصنام وتسافد الناس كتسافد البهائم.

2-ومن دلائل هذه الرحمة في العلامات أنها هي ذاتها حرز وبدل من عذاب الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» [24].

3-ومن دلائل الرحمة في العلامات: حصر الفتن ومنعها دون الأمة، مثل نهر الفرات الذي يخبئ جبلاً من ذهب، فلا ينحسر إلا في آخر الزمان، ومثل السد الذي بناه ذو القرنين فلا يفتح إلا في آخر الزمان.

4- أما دلائل الرحمة التي تتمم المنع من الفتن فهي الحفظ من الفتن حين وقوعها، ومنها: إظهار نقائص الدجال المثبتة لكذبه، مثل الكتابة على جبينه، ومنها: تعجيزه عن قتل الشاب الذي أماته وأحياه فقال له: «ربي الله وأنت

---

(22) من قوله تعالى: «والساعة أدهى وأمر»

(23) صحيح، أخرجه ابن القيم في إغاثة اللهفان وابن تيمية في شرح العمدة والشوكاني في الفتح الرباني والهيثمي في مجمع الزوائد.

(24) صحيح، أخرجه أبو داود (4278) والحاكم (4 / 444) وأحمد (4 / 410 و418).

عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم» [25].

ومثل جعل التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل عوضاً عن الطعام في السنوات التي بين يدي الدجال، فعن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ جَهْدًا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ الدَّجَّالِ فَقَالُوا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ يَوْمَئِذٍ قَالَ غُلَامٌ شَدِيدٌ يَسْقِي أَهْلَهُ الْمَاءَ وَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَيْسَ قَالُوا فَمَا طَعَامُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ قَالَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ»[26]، ومثل تحريم مكة والمدينة على الدجال فلا يدخلها[27] حتى إن المدينة ترجف ثلاث رجفات، ومثل قراءة العشر آيات من سورة الكهف، لأنها عصمة من الدجال[28].

ويكفي أن يقول النبي ﷺ في فتنة الدجال: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم» [29].

علاقة علامات الساعة بالإحسان

الإحسان هو التمام في الخير، ولذلك ذكر يوسف، عليه السلام، إحسان الله إليه إذ أتم نعمته سبحانه عليه فقال:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(يوسف:100).

ويجب الانتباه إلى أن ذكره الخروج من السجن يتضمن نعمة التمكين في الأرض، لأن التمكين جاء مع الخروج، وهو من تمام النعمة، أي الإحسان، إذْ قال له الملك بعد استدعائه من السجن:﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ

---

(25) سنن ابن ماجة، رقم (4067)
(26) مسند أحمد، رقم (23911)
(27) أخرجه البخاري، رقم (1756).
(28) صحيح، أخرجه مسلم في (الفتن) «18:63/6»، وأبو داود في (الملاحم) «114/4/ ح4321».
(29) صحيح، أخرجه مسلم برقم (5233).

لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾(يوسف:54).

وعندما حدد النبي ﷺ «الإحسان» اصطلاحاً فقد حدده بهذا المعنى، فأطلق الإحسان على إتمام أخير الأعمال وهو العبادة، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [30].

وبهذا المعنى يكون الإحسان في علامات الساعة أظهر ما يكون في علامة يأجوج ومأجوج، ذلك بأن الله قد أنجى المؤمنين بإيوائهم إلى جبل الطور، ودعا عيسى راغباً لله أن يقتلهم، فيرسل الله سبحانه النغف في رقابهم، فيموتون فرسي، فتأخذ الريح أجسادهم إلى المُهبّل، وسئل أبو يزيد عن المهبّل فقال: «مطلع الشمس».

ولعلنا نلاحظ أنه المكان الذي وجد ذو القرنين عنده يأجوج ومأجوج عندما بنى الردم، أي أن الله سبحانه بقدرته أعادهم إلى مكانهم أمواتاً: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ويهبط نبي الله عيسى وأصحابه فلا يجدون موضع شبر إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم ودماؤهم فيرغبون إلى الله فيرسل عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله عليهم مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسله حتى يتركه كالزلقة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة فتشبعهم ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل تكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي القبيلة واللقحة من الغنم تكفي الفخذ فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحا طيبة فتأخذ تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ويبقى سائر الناس يتهارجون كما تتهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[31].

وبعد موت يأجوج ومأجوج، وإعادتهم إلى أصلهم موتى وإرسال المطر وتطهير الأرض من نتنهم يبلغ الإحسان تمامه، بأن تكون أجسادهم طعاماً

---

(30) أخرجه مسلم في (الإيمان) برقم (9).
(31) صحيح، ابن ماجة، برقم (3310)

لدواب الناس فتشكر «أي تزداد» لحوم هذه الدواب على أجساد يأجوج ومأجوج.

علاقة علامات الساعة بالخير

وقد بلغ معناه الكامل في قيام الساعة ذاتها، وذلك عندما تقوم الساعة في خير يوم «يوم الجمعة» كما قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة» [32].

ويعود الخير في يوم القيامة إلى ضرورة التناسب بينه وبين الشر الذي سيكون عليه الناس قبل قيامها مباشرة، وبذلك ستجمع الساعة بين المعنيين، الأول: معنى الشر باعتبار الواقع الذي ستقوم عليه الساعة، وهو ما يناسب وصفها بقول الله عز وجل في الآية:﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأمَرُّ﴾(القمر:46)، والثاني: معنى الخير باعتبار إنهاء هذا الشر الواقع وبداية مرحلة الحق والعدل.

وبنفس القاعدة كان معنى الخير والشر في علامات الساعة، ولكن بترتيب يتفق مع الترتيب الزمني للعلامات لنصل إلى الساعة ذاتها، وفى البداية يحكم الزمن قاعدة التناسب المذكورة في الساعة، وهذه القاعدة على مدى الزمان كله تفسرها عدة نصوص.

النص الأول: هو قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، حتى يكون الناس الذين تقوم عليهم الساعة هم شر الناس كما قال ﷺ: «إن شر الناس الذين تقوم عليه الساعة والذين يتخذون القبور مساجد» [33] كما بين النبي ﷺ اتجاه الأيام بهذا الاتجاه فيقول: «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» [34]، وهذا

(32) أخرجه مسلم برقم (1410).
(33) أخرج مسلم أوله رقم (2949) في الفتن من حديث ابن مسعود بلفظ: (لا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس)
(34) البخاري في الفتن (19 – 20 / 13)، والترمذي أيضا، من حديث أنس

النص هو أساس القاعدة، وهو ما نسميه المستوى اليومي المتحكم في اتجاه الزمن نحو الشر حتى قيام الساعة.

النص الثاني: خيرية يوم الجمعة الواردة في قول النبي ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة [35]، والعلاقة بين النصين واضحة، فكل يوم جمعة لا بد أن يكون خير من اليوم السابق عليه، ولكن هذا الترتيب لا يمنع اتجاه الزمن نحو الشر على المدار اليومي.

النص الثالث: خيرية ليلة القدر على مستوى العام، لقول الله سبحانه وتعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدْر:3)، ولكن خيريتها لا تخرج عن قاعدة النص الأول المتعلقة باتجاه الأيام والزمن نحو الشر.

النص الرابع: المجددون على مستوى القرن، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» [36]، وبمقتضى هذا النص نؤمن أن كل مائة عام يكون خير وجديد، ولكنه لا يخرج عن اتجاه قاعدة النص الأول.

ثم تأتي العلامات ليكون الزمن فيها محكوماً بنفس القاعدة بكل مستوياتها الزمنية، على مستوى اليوم، وعلى مستوى الأسبوع: «يوم الجمعة»، وعلى مستوى السنة: «ليلة القدر»، وعلى مستوى القرن: «التجديد»، لتكون العلامة الأولى وهي المهدي، وقاعدة التناسب بين الخير والشر في هذه أنه «يملؤها قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما»[37]، ومن كلمة «كما» يتبين دقة التناسب، ثم تأتي علامة الدجال وهو شر مطلق، ليتبعها علامة عيسى وهو الخير المطلق، فيكون التناسب، ثم تأتي علامة يأجوج ومأجوج، فيكون بعدهم البقية التي سيرفعها الله من الأرض، وهم المؤمنون الذين يخبرهم

---

(35) صحيح، أخرجه مسلم برقم (1410).
(36)صحيح، أخرجه أبو داود في (الملاحم) 4291، والطبراني في (الأوسط) 6527.
(37) السلسلة الصحيحة للألباني برقم (1529).

عيسى بدرجاتهم عند ربهم، ليكون بعدهم شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة، ثم تكون الساعة.

ولكن يضاف إلى هذا التصور المأخوذ من النصوص الشرعية حديث هام يحدد القضية تحديداً جوهرياً، وهو يوازي حديث العلامات، ولكن من خلال محور الخير والشر: فعن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دَخَن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[38].

وكما هو واضح من الحديث فإن مقام النبوة كان أساساً في تحقيق خير الأمة، يؤكد هذا حديث النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صاحب الرسول فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم» [39].

ويبين مجاهد أن كل فتح على المسلمين هو من الفتح الذي كان للنبي ﷺ وذلك في تفسير قول الله:﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ

(38) صحيح، أخرجه البخاري برقم (3338)، ومسلم برقم (3434).
(39) صحيح الجامع للألباني، رقم: (8005).

وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾(الفتح:20)، قال: «هو كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة» [40]، وقول النبي ﷺ «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» [41].

علاقة علامات الساعة بمفهوم الحق

والقرآن يقول في الساعة:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:187)، ويفسر الآية قول النبي ﷺ: « .. فإن الساعة كالحامل المتم التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا» [42]، والقول الجامع للآية والحديث: أن الثقل هو الاقتراب، بصورة ثابتة للحق على الرغم من تغير مراحل هذا الاقتراب، تماماً مثل الجنين الذي يتغير كل يوم من حال إلى حال ولكنه متجه نحو الولادة، فلا يخرج التغير اليومي على التوجه للولادة، فكما لا تنفصل الولادة عن لحظة الجماع الأولى كذلك لا تنفصل الساعة عن بدء الخلق، ويؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: 97).

ثم يمر كل يوم ليقترب الوعد الحق، كما قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(إبراهيم:19) لأن أي اقتراب من الوعد الحق هو نفسه حق، ثم تأتي كل أحداث الساعة لتكون بذاتها أشد إظهاراً للحق، فالانشقاق حق: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (الانشقاق1-2)، ومد الأرض حق: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (الانشقاق)، والصيحة حق: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ

(40) تفسير ابن كثير ص161 ج4
(41) صحيح، أخرجه مسلم، رقم: (5149).
(42) مسند أحمد بن حنبل، رقم 5/198.

بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (ق:42)، والميزان حق: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف:8).

وبداية الخلق إلى نهايته، بدء وإعادة، هو حق لأنه من الله: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم:27)، كما قال سبحانه: {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} (سبأ:49)، وبصفة عامة، ارتبطت الساعة بالحق في قول الله الجامع: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) (الحج:6-7).

وبصفة عامة أيضاً ارتبطت الساعة بالثقل، وهو ارتباط بالحق من حيث المعنى، لأن الآية تصف الحق بالثقل لأن الحق له ثقل حقيقي، وفى هذا قول الله: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} (المزَّمل:5)، و«ثقيلاً» في الآية ليست مجازاً، بل إنها حقيقة وصفها الصحابة فيما رووه عن صفة الوحي المنزل على النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه [(43)].

وعلى هذا أيضاً يكون قول الله في الآية:﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ (الأعراف:187)، أي: إن السماوات والأرض تثقل بالساعة، والتعبير العام عن علامات الساعة يفيد معنى هذا الثقل، مثل القارعة التي تفيد الثقل والشدة، والطامة التي تفيد الثقل والشمول، والزلزلة التي تفيد النوء بالثقل، ومنه قول الله سبحانه: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (الزلزلة:2)، وقوله:﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾(الانشقاق:4) هذا هو الحق في بداية الوجود ونهايته.

---

(43) دلائل النبوة للبيهقي برقم (2986)، والمستدرك على الصحيحين برقم (3739)، والتوحيد لابن خزيمة برقم (377).

أما الحق بينهما فهو حق العلامات، وهو موضوع الدراسة تحديداً، ويتميز الحق في مرحلة العلامات بأنه **أولا:** شواهد ثبات المرحلة الدنيا، **ثانيا:** شواهد الانتقال من الدنيا للآخرة، **ثالثا:** شواهد اجتماع كل ما كان في الدنيا في العلامات **رابعا:** ارتباط كل أحداث العلامات بالسنن الثابتة، **خامسا:** الإخبار عن كل ذلك، وتحققه في الواقع.

علاقة علامات الساعة بالعدل

والحقيقة أن هذا الأصل تتمثل دلائله بصفة أساسية في علامة المهدي، ذلك لأن أهم عمل للمهدي هو أنه يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً، وإن كان هذا هو العمل الأساسي للمهدي، إلا أن هناك دلائل على العدل مرتبطة بالمهدي لها قيمة تصورية عظيمة وهي حادثة الخسف بجيش السفياني المذكور في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء أو يقتل الصبيان، فتجمع لهم قيس فيقتلها، ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرة فيبلغ السفياني فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم، فيسير إليه السفياني بمن معه حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو منهم إلا المخبر عنه»[44].

وقبل تفسير حادثة خسف جيش السفياني نستطرد قليلاً في مفهوم العدل في هذه المرحلة الزمنية التي نسميها علامات الساعة.

وفي هذا الاستطراد يجب أن نفهم أن العدل في هذه المرحلة سيكون مفهوماً كونياً قدريا، والقصاص فيه ليس على هيئة القصاص بالمعنى الشرعي للكلمة، مثل حادثة الشاة الجلحاء والشاة القرناء، كما قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» [45].

---

(44) المستدرك على الصحيحين برقم (8704).
(45) صحيح، أخرجه مسلم برقم (4686).

فالظلم في هذه الحادثة ظلم كوني قدري لأن الحيوان غير مكلف شرعا بالامتناع عنه، والقصاص أيضاً قصاص كوني قدري كذلك لأنه قصاص غير تكليفي، وبهذا المعنى ننتقل إلى واقع حادثة خسف الجيش.
وعناصر حادثة خسف الجيش: **المهدي**، وهو من نسل فاطمة، و**الجيش** الذي سمع به وأراد أن يقاتله وعلى رأسه رجل اسمه «السفياني»، ثم **الخسف بالجيش** قبل الوصول إليه.

والتفسير هو أن **المهدي** من نسل فاطمة وعليّ أبو الحسين، وأن **السفياني** آخر الزمان يوافق اسمه اسم أبو معاوية وجد يزيد، وأن الفتنة بين علي ومعاوية وامتدادها في الحسين ويزيد، وأن الفئة الباغية في الفتنة كانت فئة معاوية، وأن التصحيح بالقصاص الكوني يحتم أن ينتصر **علي**ّ في امتداده **المهدي**، ويهزم **معاوية** في امتداده **السفياني**.

وتنعكس نتيجة الصراع بين امتداد الأطراف ليكون القصاص والتصحيح، روى مسلم عن أم سلمة: وسئلت عن الجيش الذي يخسف به، وكان ذلك في أيام الزبير فقالت: قال رسول الله ﷺ: «ويعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه البعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقلت: يا رسول الله، وكيف بما كان كارهاً؟ قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»، وقال ﷺ: «لَيَؤُمَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ، وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ»[46].

فعل «الجمع الإلهي» في العلامات

وقد أوضحنا أن العلامات هي «أفعال الله الجامعة»، ومعنى الجمع في التعريف هو: أن الساعة هي إعادة الخلق إلى الله، والعلامات هي الجمع السابق للإعادة، وبصفة عامة فقد تحققت حقيقة «الجمع» في العلامات،

---

(46) صحيح، أخرجه مسلم برقم (5137).

وفى كل علامة بذاتها، مثلما اجتمع نسب النبي ﷺ واسمه وصفته في المهدي، واجتمعت فتنة الخير في عيسى ابن مريم عليه السلام، واجتمعت فتنة الشر في الدجال، واجتمعت الآيات في الدابة.

وبذلك يجمع الله أفعاله في العلامات، وقاعدة جمع الشيء قبل إعادته فعل إلهي ثابت، ومثاله الواضح: جمع الإسلام في المدينة ثم رفعه منها كما قال رسول الله ﷺ «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» [47].

ومثاله أيضاً: جمع الناس في أرض المحشر وجمعهم في الساهرة، ومثاله أيضا: جمع السماوات، كما قال سبحانه: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزُّمَر:67)، ومثاله أيضاً: جمع الأرواح بالنفخ في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (الكهف:99)، وسيفهم فعل «الجمع الإلهي» بصورة تفصيلية كاملة من خلال عرض العلامات ذاتها فيما بعد.

---

(47) صحيح، أخرجه البخاري برقم (1753)، ومسلم برقم (213).

الفصل الثاني

«الوحدة الطبيعية للعلامات: التجانس، التقسيم، الكبر، حساب الزمن، الإنذار، النهاية أو الإعادة، الفجائية».

الوحدة الطبيعية للعلامات

وبعد فهم العلامة باعتبارها فعلا إلهيا جامعا، ننتقل إلى فهم العلامات باعتبار الوحدة الطبيعية بينها، وهي الوحدة الناتجة عن وضعية كل العلامات كبرزخ بين الدنيا والآخرة، وهي الواردة في التعريف «في نهاية الدنيا وبداية الآخرة.

التجانس:

وباعتبار أن علامات الساعة لا تخرج في بدايتها ونهايتها عن مرحلة واحدة وهي البرزخ، لزم تحقيق التجانس بين العلامات في إطار وحدة المرحلة.
ومن ناحية أخرى لزم تحقيق التجانس بين العلامات جميعها وبين الساعة ذاتها، ليتمثل هذا التجانس في وحدة الأسلوب الذي يُهدم به البناء الكوني الذي سيكون في الساعة ذاتها وبين إهلاك الأمم في الدنيا كمقدمة للساعة ومنها القارعة والرجفة والصيحة.

أما الربط بين إهلاك الأمم والإهلاك العام وقت قيام الساعة فقد جاء في عدة مواضع، منها قوله تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ) (هود:101- 104).

وقول الله سبحانه (بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) (الأنبياء:44)، حيث ورد في إنقاص الأرض هو خراب الأرض وإهلاك أهلها، وذلك بموت علمائها[48]، وهو العلامة التي قال فيها النبي ﷺ: «يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنى والزلازل»[49]، حتى تقوم الساعة بزلزالها الأكبر، وقول الله (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا

---

(48) قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة نقلا عن تفسير ابن كثير.
(49)صحيح، أخرجه البخاري برقم (10366).

شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (الإسراء:58)، وهذا إخبار من الله عز وجل حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها، أي يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم.

وكما كانت الزلازل في العلامات مقدمة لزلزال الساعة الأكبر، كانت الصواعق في العلامات مقدمة لصعق الساعة الأكبر، كما قال النبي ﷺ: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان» (50)، وكما قال تعالى في الصعق الأكبر:﴿ ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ ومَن فِي الأَرْضِ﴾(الزمر:68).

وبذلك أصبحت العلامات بين يدي الساعة متجانسة تماماً مع الساعة ذاتها، فمن العلامات: «كثرة الزلازل»، وكانت هي الزلزال الأكبر، ومن العلامات: «كثرة الصواعق»، وكانت هي الصاعقة الكبرى.

التعاظم:

ومن مرحلة إهلاك الأمم كمقدمة بين يدي الساعة، يبقى التجانس ليتجه نحو التعاظم في علامات الساعة نفسها بعد إهلاك الأمم كمقدمة لها، أي أن العلامة التي تتجانس مع أختها يتحقق فيها كلما استمرت طبيعة الساعة لتكون الساعة أكبر وأعظم صورة للعلامات.

التقسيم: «صغرى وكبرى»:

ومن خلال الأساس العام تتحدد الخصائص العامة لعلامات الساعة، وأول هذه الخصائص هو انقسامها إلى صغرى وكبرى، والصغرى هي العلامات التي تكون أكثر تجانسًا في طبيعتها مع الدنيا، والكبرى هي العلامات التي تكون أكثر تجانسًا في طبيعتها مع الآخرة.

---

(50) أخرجه أحمد في مسنده (3/64-65» والحاكم (4/491/ ح 8373» وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه -.

والعلامات الصغرى هي المثبتة للخلل الذي سيصيب الدنيا ليكون من أوله خبر النبي ﷺ حيث قال: «ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ، فَعَلَيْكَ خُوَيْصَةَ نَفْسِكَ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلِ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ»[51].

وما بين المرحلتين مرحلة وسط، وهي العلامات التي تشهد التحول من الغيب إلى الشهادة، أو اقتراب الشهادة من الغيب، ومنها قول رسول الله ﷺ: «في آخر الزمان لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب» [52]، وقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَيُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ، وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَيُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ» [53].

حساب الزمن

وقبل تفسير هذه الخصيصة نفسر العلاقة بين الحدث والزمن أصلاً، فبصفة عامة، فإن الدنيا كانت نموذجاً عاماً للعلاقة بين الحدث والزمن, وهي الحالة التي يذكر فيها قوة الحدث وزمنه دون غلبة لأحدهما على الآخر، فنقول في الدنيا: حدث كذا يوم كذا، والاستثناء منها نموذج للحال الثاني، مثال قول الله عز وجل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم:5)، أي: بنعمه ونقمه، أي أن الأيام عرفت بالنعم والنقم.

ومثل أن تقول: يوم بدر، وعام الفيل، فيُعرف الزمن بالحدث، أي إن الحدث يغلب على الزمن، وهي الحالة الثانية من العلامات حيث تقترب الدنيا من النهاية فيبدأ حساب الزمن بالحدث بعد غلبة الحدث على الزمن، مثل قول النبي ﷺ: «يَوْمُ الْخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ يَوْمُ الْخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ

---

(51) سنن ابن ماجة برقم (4012).
(52) مسند أحمد بن حنبل برقم (7457).
(53) مسند ابن حنبل برقم (11581). ومصنف ابن أبي شيبة برقم (36560).

يَوْمُ الْخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ ثَلَاثًا»، فَقِيلَ لَهُ: «وَمَا يَوْمُ الْخَلَاصِ» قَالَ: «يَجِيءُ الدَّجَّالُ فَيَصْعَدُ أُحُدًا فَيَنْظُرُ الْمَدِينَةَ فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ أَتَرَوْنَ هَذَا الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ ثُمَّ يَأْتِي الْمَدِينَةَ فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكًا مُصْلِتًا فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْحَرْفِ فَيَضْرِبُ رُوَاقَهُ ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ وَلَا فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ فَذَلِكَ يَوْمُ الْخَلَاصِ»[54].

مثلما يكون في علامة الدجال حتى يذكر الرسول ﷺ زمناً غير ثابت لحدثه فيقول: «ومدة بقائه في الأرض أربعين يوماً، يوم كجمعة ويوم كشهر ويوم كسنة وباقي أيامه كأيامكم هذه» [55]، ومن هنا تنشأ دلالة جديدة للفظ: «اليوم» ليكون هو الوحدة الزمنية الجامعة لأحداث ذات صفة مشتركة.

وهذه القاعدة التي تحسب بها أيام الدجال ستكون مقدمة لحساب الزمن في الآخرة كلها، حتى تأتي الساعة فلا يذكر اليوم إلا بأحداث لتكون الساعة هي الحدث وهي الزمن في نفس الوقت، حتى سميت الساعة بكل أحداثها وأهوالها «يوم القيامة».

وقياساً على ذلك تكون أحداث الساعة بعد ذهاب الليل والنهار الدنيويين فيكون اليوم الذي تنسب إليه أحداث الساعة وحدة زمنية معبرة عن الحدث فقط مثل يوم القيامة، يوم البعث، يوم الحشر، يوم الحساب وهكذا، وبذلك يكون لحساب الزمن ثلاثة معايير: الليل والنهار، وهو يوم الدنيا، والحدث الأكبر من الزمان، وهو أيام العلامات، والحدث الذي هو ذاته حساب الزمن، وهو الساعة وأحداثها.

وباعتبار مجيء الساعة بغتة فقد حسبت كجزء من اليوم لأن الساعة لغة هي الزمن السريع وهي جزء من الليل أصلاً، قال ابن منظور: «الساعة

(54) أخرجه أحمد في المسند (338/4» وابن أبي شيبة في «مصنفه»«19337/143/15» عن أنس، والحاكم في المستدرك «543/4» كتاب الفتن، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(55) أخرجه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال «289/9/ح 2137» وفي المسند «166/2»، والحاكم في (المستدرك) «551/550/4» وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قطعة من الليل، ولكن يمكن إطلاقها على الجزء من الليل أو النهار» [56].

الإنذار

وباعتبار أن علامات الساعة إنذار بالساعة، فإن حقيقة الإنذار قد شملت العلامات وطبيعتها. وعلامة انشقاق القمر هي الدليل الأول على معنى الإنذار في العلامات، فإذا افترضنا أن قيام الساعة ذاته مرهون بالشمس، فيكون انشقاق القمر إنذاراً لها، بسبب علاقته بالشمس، وباعتبار أن الشمس هي بداية الساعة، والقمر قبل الشمس أصبح القمر نذيرًا، لأن النذير هو الذي يسبق الحدث بحيث يكون قريباً منه.

وهذا المعنى ليس استنتاجاً ولكنه حقيقة قرآنية جاءت فيها سورة كاملة وهي سورة القمر ابتداءً من قول الله عز وجل: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) (القمر:1) حتى آخر السورة مروراً بقول الله في السورة: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) (القمر:16) عدة مرات.

الإنهاء بالإعادة

وباعتبار خصيصة التعاظم تأتي خصيصة النهاية لأنها النتيجة للتعاظم، ومعنى النهاية هو نفسه معنى إعادة الخلق إلى الخالق سبحانه.
وهذه الإعادة هي أخطر خصائص العلامات لأن هذه الإعادة ستكون بنفس نظام البدء، فكما أن الله أنزل الأمانة قبل الدين فإنه سبحانه يرفع الأمانة قبل رفع الدين؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أول ما يرفع من الناس الأمانة وآخر ما يرفع الصلاة» [57]، ثم يرفع العلم، ثم ترفع الأحكام، ثم ترفع الصلاة، ثم

---

(56) لسان العرب لابن منظور.

(57) أخرجه الطبراني عن عمر بن الخطاب، قال الهيثمي في (المجمع) «321/7» فيه حكيم بن نافع وثقة ابن معين وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله ثقات وفي الباب عن أبي هريرة عن أبي يعلي وفيه أشعث ابن براز وهو متروك كذا قال الهيثمي ايضاً، وفي مسند الفردوس من حديث علي بن أبي طالب مقتصراً على أول الحديث «48/1» وعزاه ابن حجر في (شديد القوس) إلى أحمد من حديث عوف بن مالك والطبراني من حديث أبي الدرداء، قال الألباني في صحيح الجامع «353/2»: صحيح.

يرفع القرآن، ثم ترفع لا إله إلا الله.
هذا هو الدين ذاته، أما واقع الدين فإنه يعود من حيث بدأ، إلى المدينة، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» (58).

البغت: «الفجائية»

والبغت: صفة للساعة، وهي حقيقة ضرورية لتحقيق التوازن بين ضرورتين لعلامات الساعة: خفائها وظهور أشراطها، وقد جمعت الآية: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ) (طه:15) بين هاتين الضرورتين، فالساعة لا يعلم وقتها إلا الله، وهذا هو الخفاء، ولكن للساعة علامات تنذر بمجيئها، وهو معنى المقاربة في:﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾.

والبغت هو التوازن بين الضرورتين، فالخفاء ليس مطلقاً لأن للساعة علامات ظاهرة، والعلامات لا تفيد العلم بوقت الساعة المحدد.
ولا تفسر هذه العلاقة بأحسن من كلام النبي ﷺ: «الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجئهم بولادها ليلاً أو نهاراً»(59)، فتمام الحمل يفيد دخول وقت الولادة، ولكن لا يحدد لحظتها، وهذا تفسير قول الله عز وجل: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الأعراف:187)، ولذلك جاءت: (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) تشبيهاً بثقل الحمل.

ويصور النبي ﷺ البَغْت في قيام الساعة فيقول: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه» (60).

---

(58) أخرجه البخاري في (فضائل المدينة)، باب الإيمان يأرز إلى المدينة «1876/111/4»
(59) مسند أحمد5/189
(60) أخرجه البخاري في (الفتن) / باب: بدون ترجمة، الفتح «13 / 7121/88».

الباب الثاني: التصور المنهجي للعلامات

«المهدي، الدجال، عيسى ابن مريم... يأجوج ومأجوج، الدابة، الشمس»

اتفقنا أن العلامات هي أفعال الله الجامعة، «وكان تفسير هذا الجزء هو الفصل الأول من الكتاب»، في نهاية الدنيا وبداية الآخرة، «وكان تفسير هذا الجزء هو الفصل الثاني».

وتحقيق إيمان الناس من خلال العلامات يكون باعتبار زمنيين مختلفين، **الأول:** زمن ما قبل حدوث العلامات، وتحقيق الإيمان فيه يكون بفهم العلامات واليقين في حدوثها والتصور الصحيح لإسقاطها على الواقع، و**الثاني**: زمن حدوث العلامات في آخر الزمان، وتحقيق الإيمان فيه يكون بحدوث العلامة ذاتها وتحققها في الواقع فعلاً، وباعتبارنا في زمن ما قبل الحدوث فإن تحقيق إيمان الناس يكون: بفهم العلامات عموما، وبفهم كل علامة على وجه الخصوص.

أولاً: المهدي

والحكمة الأساسية في علامة المهدي هي أنه حلقة في الامتداد بصلاحية الأمة حتى آخر الزمان، ولذلك اجتمعت فيه كل عوامل هذا الامتداد، أما الدليل على هذه الحكمة فهو الارتباط الثابت في نصوص المهدي بينه وبين النبي ﷺ حيث يقول: «كَيْفَ تَهْلِكُ أُمَّةٌ أَنَا أَوَّلُهَا وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آخِرُهَا، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي وَسَطِهَا» (61) ولعل ذكر المهدي في الوسط يدل على أن الأمة قد استحقت الانقطاع في زمن يأتي بعد ذلك ويأتي المهدي ليصحح حالها بإذن الله لتبقى حتى آخر الزمان.

واستمرار الأمة بالمهدي إلى آخر الزمان قدر مكتوب لابد أن يكون بإذن الله مهما بلغت المدة التي سيمتد بها، حتى ولو كانت يوماً واحداً، بدليل قول رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة لتملك فيها رجل من أهل بيتي» (62).

وذكر ظهور المهدي بهذه الصورة هو الذي يؤكد حتمية هذا الامتداد وأنه هو الحكمة الأصلية من هذا الظهور، ولعل البقاء على إمامة الأمة في الصلاة حتى آخر الزمان دليل على هذا الامتداد، وقول النبي ﷺ: «.. فينزل

(61) تاريخ دمشق لابن عساكر برقم (20731).
(62) عزاه صاحب عقد الدرر إلى الحافظ أبي نعيم في (صفة المهدي) من حديث أبو هريرة.

عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا، فيقول: إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة» [63] هو نص صريح في هذا المعنى.

ولكن الامتداد بالأمة حتى آخر الزمان ليس مهمة سهلة، بل تتطلب أن يجتمع في المهدي كل الإمكانيات اللازمة لهذا الامتداد، وأول هذه الإمكانيات: الخلافة، فالمهدي خلافة مباركة سيعينه الله عليها، لأنه لم يكن يستشرفها لنفسه بل كان كارهاً لها، وهذا هو سبب البركة والصلاح، ولذلك ولأجل البركة في الخلافة، كان المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثواً، وفي هذا دليل على بركة عدم الاستشراف للدنيا والسلطان والمال.

وأهم دلائل الهداية القدرية للمهدي المتعلقة بالخلافة هي مكان الخلافة نفسه، لأن الله عز وجل ذكر هذا المقام كمقام هداية وآيات بينات للعالمين، فقال عز وجل: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران:96-97).

وجدير بالتدبر ذلك المكان الذي انطلق سيبايع فيه المهدي، فهو بين الركن والمقام، وفي ذلك ربط بين سيدنا إبراهيم كأول إمام للأمة المسلمة، وبين المهدي كآخر إمام لها، ووسيطة الإمامة المحمدية بينهما، فهو ارتباط بين ولاية المهدي على المسلمين وبين العهد الذي كان من الله لهم في قول الله عز وجل: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (البقرة:127-129).

---

(63) صحيح، أخرجه مسلم في (الإيمان) / باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً (468/1/ح 156»، والبخاري في (أحاديث الأنبياء) / باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام «3449/566/6».

ويجمع بين الثلاثة علامة صورية وهي الشبه بينهم، فأما الشبه بين النبي ﷺ وسيدنا إبراهيم فهو قول النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في وصف الأنبياء، فجاء ذكر سيدنا إبراهيم فقال: «فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم (يعني نفسه)» (64)، وأما بالنسبة للشبه بين سيدنا محمد والمهدي، فهو قول الرسول ﷺ في المهدي: «إنه أجلى الجبهة وأقنى الأنف» (65).

ولعل ما يثبت للمهدي التجرد وعدم الاستشراف وينفي عنه حب الرياسة هو تراجعه لعيسى ليصلى بالناس، فموقف الإمامة تحديدا هو دليل على التجرد لأنه يوضح طبيعة المهدي التي لم تتغير، لأنها الطبيعة الطيبة المتجردة التي بقيت بعد ممارسة السلطان والخلافة ووفرة المال.

وفاعلية «حفظ الأمة» التي للمهدي إنما تعود في أصلها إلى ما بينه وبين النبي ﷺ من معنى مشترك، وقد أخبر النبي ﷺ عن نفسه وأنه سبب لحفظ الأمة، فقال: «أنا أمنة لأصحابي، وأصحابي آمنة لمن بعدهم»(66)، هذا من حيث الحفظ، إما من حيث التمكين في الأرض فهو مرتبط كذلك ﷺ بهذا المقام، وهذا يستدل عليه من قول النبي ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيَقُولُونَ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيُقَالُ هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ فَيُقَالُ هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ»(67).

وبذلك يتأكد أن صلة المهدي برسول الله ﷺ تمثل فاعلية قدرية عظيمة في حفظ الأمة والتمكين لها في الأرض.
والتشارك في الاسم بين النبي ﷺ وبين المهدي هو من هذه الصلة، إذ أن

---

(64) صحيح، أخرجه مسلم برقم (249)
(65) إسناده حسن كما قال الأرناؤوط وانظر شرح السنة «85/15ح 86»، باب المهدي وذكره صاحب عقدة الدرر في أخبار المنتظر، ص:164.
(66) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) / باب: بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه. «222/8/ح 2531».
(67) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل عن أصحاب النبي ﷺ (3649).

للاسم عموما فاعلية قدرية، وفي ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن المسيب أن جده حزنا قدم على النبي ﷺ، فقال: «ما اسمك»، قال: «اسمي حزن»، قال: «بل أنت سهل»، قال: «ما أنا بمغير اسما سمانيه أبي» قال ابن المسيب: «فما زالت فينا الحزونة بعد» [68].

كما كان رسول الله ﷺ يفسر الرؤى بحسب ما ورد فيها من أسماء، فعن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع، وأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت: أن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»، فإذا كان المهدي هو محمد بن عبد الله، فان حظه من الهُدى يكفي بإذن الله لأن يكون هادياً مهدياً.

أضف إلى ذلك روعة استخدام النبي ﷺ للفظة «يواطئ» في عبارة «يواطئ اسمه اسمي»، فإن لفظ «يواطئ» يعني «الموافقة» كما يعني «التأكيد»، وكأن المهدي بظهوره هو تأكيد لظهور النبي ﷺ بتكميل وجوده.

ويدل على أن الحكمة من ظهور المهدي مرتبطة بحفظ الأمة ومد زمانها، أنه يظهر في أحوال موجبة كلها للهلاك، فعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه، قال: فإذا رأيتموه فتابعوه ولو حَبْواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي»[69]، ويدل على ذلك أيضا ما أخبر به النبي ﷺ من أنه: «أبشركم بالمهدي يبعث فيأتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض»، وفي حديث أم سلمة: «يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام»[70]، وفيه أن الأمة كانت مستحقة للهلاك قبله، وفيه أيضا أنه قد عقد له خصلة مانعة للأمة من الفتن والهلاك، وهي أنه محفوف

---

(68) صحيح، أخرجه البخاري برقم (5754).
(69) نهاية البداية والنهاية لابن كثير، والبحر الزخار والتذكرة للقرطبي.
(70) أخرجه أبو داود في (المهدي) (4286)، وأحمد «6 / 316».

برضى أهل الأرض وأهل السماء.

وللفظ «جوراً» الوارد في وصف الأرض في عبارة النبي «يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً له دلالة هامة، فالجور هو الخروج عن العدل كما أنه الخروج عن الهداية، وبذلك يكون لفظ «الجور» هو اللفظ المقابل للفظ «الحنيفية» تماما، وقد ورد لفظ الجور مقابلا لمعنى الهداية في قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (النحل:9)، وقد فسر الثعالبي قوله تعالى: «ومنها جائر» بقوله: «اليهود والنصارى»، وقد ورد لفظ الجور بالمعنى المقابل للهداية إلى الطريق في الحديث المرفوع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما فتح هذان المصران أتوا عمر فقالوا : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ حدَّ لأهل نجد : قرناً، وهو جَوْرٌ عَنْ طريقنا» أي مائل عنه ليس على جادته، ومنه قول النبي ﷺ: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى إلا جورا»[71] أي ضلالا عن الطريق.

وإننا نلاحظ وضوح الآثار القدرية بصور متفاوتة، في علامة المهدي، ابتداءً من كونه حقاً وفاعلية الحق معروفة قدراً، مروراً من خير القرشية، وفاعليتها القدرية في تبعية الناس لها، ومروراً بنسل إسماعيل «أشد الأمة على الدجال»، والاسم «والنصيب من الاسم» وقلة الطائفة المبايعة «وفاعلية القلة المؤيَّدة من الله»، ثم خسف الجيش المعادي له بالبيداء، لتكون الآثار القدرية أكثر وضوحاً وأتم حدوثاً بفتح القسطنطينية بالتكبير.

ومن الأسباب القدرية التي هيئها الله عز وجل للمهدي لتحقيق الغلبة له على أعدائه من الروم هو ما سيكون من ولاء بين المسلمين في عهده، والذي تبين من رفض المسلمين لطلب النصارى أن يسلموهم من أسلم ممن كانوا على غير الإسلام،﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة:56).

للوقوف على ما يدل على هذه الواقعة يجب الإشارة إلى نصين، الأول: هو ما ورد في صحيح مسلم «سمعتم بمدينة جانب منها في البر، وجانب في

---

(71) تاريخ دمشق لابن عساكر رقم 543

البحر؟ لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقول الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقول الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلونها، فيغنمون، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»، أما الحديث الآخر فواضح في دلالته على طلب الروم من المسلمين التخلية بينهم وبين من غزوهم، وهو حديث: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته»[72].

يقول الإمام النووي في شرح الحديث: «رُوِيَ «سُبُوا» عَلَى وَجْهَيْنِ: فَتْح السِّين وَالْبَاء، وضمهما، قال القاضي في المشارق: الضم رواية الأكثرين، قال: وهو الصواب، قلت: كلاهما صواب؛ لأنهم سبوا أولا، ثم سبوا الكفار، وهذا موجود في زماننا، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سبوا، ثم هم اليوم بحمد الله يسبون الكفار، وقد سبوهم في زماننا مرارا كثيرة، يسبون في المرة الواحدة من الكفار الوفا، ولله الحمد على إظهار دينه وإعزازه» [73].

---

(72) صحيح، أخرجه مسلم 5704
(73) شرح النووي على مسلم.

أيضا من الأسباب التي هيئها الله للمهدي لتحقيق الغلبة له هو خيانة النصارى أنفسهم، والله لا يحب الخائنين، وبين القرآن فيهم:﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾(الأنفال: 71)، وذلك في غير حديث منها حديث ذي حجير رجل من صحابه النبي ﷺ سمعه يقول: تصالحون الروم صلحاً آمناً، وفيه، «فيغدرون ويجتمعون للملحمة» (74) ونحو هذا أيضاً في حديث ابن مسعود (75).

ثم نأتي إلى أهم أسباب تهيئة الواقع للمهدي لنجدها:

خلافة قبل المهدي

ومما يجب الانتباه إليه هو أسبقية الخلافة السلامية قبل ظهور المهدي، فمما لا شك فيه إن إحساس أصحاب الدعوة بسبق الخلافة للمهدي سيعمق من الإحساس بالمسئولية عنها والإعداد لها وتهيئة الواقع لأقامتها، وأن الإحساس بقيام الخلافة بالمهدي قد يحدث نوعاً من ضعف المسئولية عنها، ولكن الأصل والصواب ألا يكون هناك هذا الفرق، لأن إقامة الخلافة في الحالتين لن تكون إلا بقدر الله، وأن إقامتها في الحالتين أيضاً سيتطلب الالتزام بتحقيق أسباب قدرية هي واحدة في كلا الاحتمالين.

ومما يجب الانتباه إليه أيضا أن الخلافة القادمة قبل المهدي بإذن الله لن تكون ظاهرة عابرة، بل إن الأدلة تثبت استقرارها في الواقع بصورة مكررة تحقق استقرار صفة الدوام والبقاء، فمن ذلك ما تقدم من أحاديث تبين أن ظهور المهدي عند موت خليفة ولا يتصور خليفة بغير خلافة.
وهذه المعلومة الثابتة في الخلافة تعطي للمسلم شعوراً بسهولة الأمر عند الله وأن الأمر الإلهي ليس فيه سهل وصعب: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس:82)، وبهذا الإحساس يعلو المسلم فوق مشكلات الواقع وعقباته.

---

(74) أخرجه الحاكم في (مستدركه) «421/4»، وأبو داود في (الملاحم) / باب: ما يذكر من ملاحم الروم (4/107/4292» وتقدم.
(75) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) وعزاه (صاحب حاشية كتاب عقد الدر) إلى مخطوطة رقم «116، 117» له.

وما تعنيه مهمة المهدي من الامتداد بالأمة إلى آخر الزمان، إنما هو –تحديداً– بلوغ الأمة مرحلة قتال الدجال، ومن هنا يجب أن نفهم في تحديد مهمة المهدي أن قتل الدجال كان مهمة أساسية للمهدي وأن المهدي قد بدأ بالفعل في الإعداد لقتله.

ولكن نزول عيسى ابن مريم جاء مساعدة للمهدي على الدجال، هذا المعنى يجب أن يستقر حتى وإن كان عيسى هو قاتل الدجال، ودليل ذلك أن جميع العلامات المرتبطة بقتل الدجال قائمة بالمهدي كما قال ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب» [76]، وخراب يثرب إنما يكون بخروج المهدي بجيشه إلى بيت المقدس لقتال الدجال، كما أن خروج الملحمة وانتصار المسلمين فيها سيكون بقيادة المهدي.

والدليل المباشر على ذلك ما رواه مسلم في الملحمة: فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته» [77].

والبداية الفعلية التي يعرف بها أمر المهدي، ليست حديثاً ولكنها علامة لا تجتمع في أحد إلا في المهدي، وهي: الخسف بالجيش الذي يريد قتل المهدي، وبعدها يعرف المهدي معرفة عامة، كما قال ﷺ: «فيخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث إليه جيش من الشام فيخسف به بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق

---

(76) أخرجه أبو داود في (الملاحم) / باب: إمارات الملاحم «4 / 1107 / ح 4294»، والحاكم في مستدركه (4 / 420).
(77) أخرجه مسلم في (الفتن) / باب: فتح القسطنطينية وخروج الدجال «248/9/ح 2897».

فيبايعونه»[78]، فهذه هي أولى العلامات التي يعرف بها المهدي لجميع الناس، وفتح القسطنطينية ببني إسحاق الذين سينحازون إلي المهدي وهم سبعون ألفاً وهم الذين سيطلب النصارى من المهدي أن يسلمهم لهم فيأبى.

ثانيا: الدجال

وقبل الدجال يكون الزمان الذي يسبقه، وتطبيقا لقاعدة التجانس، وقاعدة العلامات الخارجية للعلامة ذاتها وقاعدة الارتباط بين العلامات، فان الله عز وجل جعل الزمن الذي سيسبق الدجال تهيئة كاملة له، فأصبح للزمن السابق للدجال صفتان، **الأولي**: سنوات جوع، وذلك لأن فتنة الدجال فتنة طعام، **الثانية**: سنوات خداع، ذلك لأن فتنة الدجال خداع.

ففي الصفة الأولي، وفيها ورد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكر جهداً يكون بين يدي الدجال، فقالوا: «أي المال خير يومئذ؟» قال: «غلام شديد يسقي أهله الماء وأما الطعام فليس»، قالوا: «فما طعام المؤمنين يومئذ؟» قال: «التسبيح والتكبير والتهليل»[79]، وعندما قال الرسول ﷺ «أما الطعام فليس» يعنى لا يوجد طعام نهائياً، ولكنه يفسر ذلك بقوله في حديث آخر في فترة ما قبل الدجال: «إن ما قبل الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطره، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء فلا تبقي ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل فما عيش الناس في ذلك الزمان قال: التهليل والتكبير

---

(78) سنن أبي داوود رقم (3740).
(79) له شاهد من حديث عبد الله بن عمر أخرجه الحاكم في (مستدركه) «511/4» قال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام»[80].

أما الصفة الثانية، أي السنون الخداعة التي أتى بها خبر النبي ﷺ: «إن بين يدي الدجال سنون خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، ويتكلم فيها الرُّوَيْبِضَة، قالوا: ما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التافه يتحدث في أمر العامة» [81]، فهي تلك الفترة التي تتمها فتنة الدجال والقائمة على الخداع أيضا، وعناصر الخداع في فتنة الدجال واضحة، وهي أن: «معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار» [82].
ومن عناصر الخداع في فتنة الدجال أيضا ما ورد من تشبه الشياطين للناس بآبائهم يؤكدون لهم ربوبية الدجال، وهو ما ورد في حديث النبي ﷺ: «وتبعث معه الشياطين على صورة من مات من الآباء والإخوان والمعارف فيأتي أحدهم إلى أبيه وأخيه وذي رحمه فيقول ألست فلانا ألست تعرفني هو ربك فاتبعه» [83].

وكما كانت العلامة من طبيعة الساعة، كان لكل علامة علامات لها هي أيضا من طبيعتها، يعني ما قبل العلامة، والعلامة ذاتها والساعة طبيعة واحدة، ولذلك يجمع رسول الله ﷺ بين علامات الدجال والدجال من خلال عدة أمور:

جفاف نخل بيسان

وهو مقدمة لظهور الدجال كما هو معلوم من حديث تميم الداري وما نقله عن الدجال من قوله:»، أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك

---

(80) أخرجه أحمد في (مسنده) «452/6، 454»، وابن ماجة في (الفتن) / باب: فتنة الدجال، ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج «1359/2 / ح4077»، عزاه صاحب عقد الدرر لمسلم.
(81) أخرجه الحاكم في (المستدرك) «4 / 466».
(82) أخرجه مسلم في (الفتن) / باب: ذكر الدجال بصفته وما معه «287/9/ح 2934»، وتفسير ذلك أن الذي معه جنة ونار بطبيعة سحرية، فإذا دخل أحد جنته السحرية يكون قد دخل نار الله الحقيقية، لأنه سيكون مفتوناً، وإذا دخل ناره السحرية يكون قد دخل جنة الله الحقيقة، لأنه سيكون ناجياً.
(83) تقدم.

أن لا تثمر» [84].

أما علاقة هذه العلامة بظهور الدجال فهي أن النخل مطلقا هو ثمر التمر، والتمر مختص بفاعلية قدرية مقابلة للسمّ السحر، وذلك كما عُلم من حديث النبي ﷺ: «من تصبح سبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» [85]، وأظهر أفعال السحر هي ما تكون من الدجال، كما أن الدجال مقترن بالسم باقترانه بالموت، واقترانه بالموت معلوم من خبر النبي ﷺ: «لا يدخل المدينة الدجال والطاعون» [86].

ثم إن التمر، إضافة لما ذكرنا من كونه حرزا قدريا من طبائع هي من جنس طبائع الدجال، فهو حرز قدري كذلك من أداة الدجال في الفتنة، أي الجوع، وذلك معلوم من خبر النبي ﷺ: «يا عائشة، بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة، بيت لا تمر فيه جياع أهله، قالها مرتين، أو ثلاثا» [87].

ويمكن رصد علاقة التضاد بين الدجال وبين النخل من طريق آخر، فنخل بيسان كما أنه حرز من الدجال، وثمر النخل مطلقا كما أنه حرز من أفعال الدجال (السم والسحر)، فجريد النخل أيضا يخفف من فتنة القبر، وهي قرينة فتنة الدجال في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»[88]، أما وضعية جريد النخل كسبب لتخفيف عذاب القبر فثابت من حديث النبي ﷺ حين أتى على قبرين يعذب صاحباهما: «ما يعذبان في كبير ثم قال: بلى، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يتأذى من بوله ثم أخذ جريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما، ثم غرس كل كسرة على قبر، فقال: إنه يخفف عنهما ما دامتا رطبتين».

---

(84) صحيح مسلم، رقم: (2942).
(85) أخرجه البخاري في (الطب) 5768، 5769»، ومسلم في ((الأشربة) / باب: فضل تمر المدينة «2/14/5، النووي».
(86) أخرجه البخاري في (فضائل المدينة) / باب: لا يدخل الدجال المدينة «1880/114/4» من حديث أبي هريرة.
(87) صحيح مسلم، رقم: (2046).
(88) صحيح البخاري، رقم: (1377).

جفاف بحيرة طبرية

وأول شواهد العلاقة بين الدجال والجدب هو جفاف بحيرة طبرية، كما تقدم عند مسلم في حديث تميم الداري مع الجساسة وسؤال الدجال لهم: «أخبروني عن بحيرة طبرية قلنا عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء: قال أما إن ماءها يوشك أن يذهب» (89)، وجفاف بحيرة طبرية لا يعني إلا ظهور أرض جدباء لا نفع فيها وهي ما يحبه الدجال من الأرض.

وبذلك يصبح الناس نتيجة لأعمال الدجال بين الفقر المنسي والغنى المطغي، ولذلك يجمع لنا نبينا الكريم ﷺ جميع هذه الأعمال في حديث واحد فيقول: «بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا إلى فقر منسٍ أو غنى مطغٍ أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدجال فشر غائب ينتظَر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» (90)، وقد ذكر هذا الحديث في تفسير قول الله عز وجل في سورة القمر: (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) (القمر:46) على لسان النبي ﷺ ليتحقق الارتباط بين الساعة وعلاماتها.

الخروج من غضبة

لقد ذكرنا أن انقطاع ثمر نخل بيسان وجفاف بحيرة طبرية هما علامتان لعلامة الدجال مرتبطتان به في المعنى، وذلك في سياق التأكيد على ارتباط علامة الساعة بعلامتها هي عموما، نضيف هنا دلالة واقعة خروج الدجال من غضبة يغضبها، والمقصود بالخروج هنا هو ابتداء أمره الذي خلق له، وهي تلك الواقعة التي أخبرت بها السيدة عائشة في حديث لها مع ابن عمر تحثه على عدم إغضاب ابن صياد، وكان قد شاع أن ابن صياد هو الدجال كما هو معروف، وذلك فيما يرويه نافع عن ابن عمر: «قال (ابن عمر): فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه، فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال (ابن صياد): لا أدري، قال: قلت (ابن عمر): لا تدري وهي في رأسك؟ قال (ابن صياد): إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، قال (ابن عمر): فنخر كأشد نخير حمار سمعت، فزعم بعض أصحابي أني ضربته

---

(89) تقدم.
(90) الترمذي، رقم: (2306).

بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا، فوالله! ما شعرت، قال (نافع): وجاء – أي ابن عمر -حتى دخل على أم المؤمنين، فحدثها فقالت: «ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال، أي الرسول ﷺ، «إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه» [91].

والمعنى المشترك بين الدجال وبين الغضب الذي هو علامته وبداية ظهوره، هو (عدم النفع)، فالدجال يخبر عنه النبي ﷺ بأن أبويه يمكثان ثلاثين عاما لا يولد لهما، ثم «يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة».

أما الغضب فقد ففي الحديث أن رجلا قال للنبي ﷺ: «أوصني» قال: «لا تغضب» قال: «ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله»، والغضب للنفس هو نذير لذهاب الملائمة وقعود الشيطان، وفي ذلك حديث ابن المسيب: «بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحاب وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه فآذاه فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر فقام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه أوجدت علي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك فلما انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأجلس إذن مع الشيطان».

الخروج في كذب

وكما يخرج الدجال من خلال الغضب وهو جماع الشر فإنه يخرج من الكذب وهذا هو الأمر العجيب، إذ يقول النبي ﷺ بعد ذكر الملحمة: «ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيه الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذاك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج» [92].

---

(91) صحيح، أخرجه مسلم 2932.
(92) رواه مسلم، في الفتن 2897

وفي رواية: «أن المسيح قد خرج في بلادكم إلا وهي كذبة» [93].

فيتبين من الحديث برواياته أن الشيطان أو الصريخ سيكذب ويقول ظهر المسيح فيذهب المسلمون ليجدوا أن الصريخ كاذب ولكنهم وهم يعلمون كذبه يخرج فعلاً، فيكون قد خرج من الكذب كما يخرج من الغضب.

الدجال والملح

وبصفة أساسية فإن للدجال علامتين تدلان علي نفي النفع والخير فيه، وهما دليل واحد على التجانس بين العلامة وعلامة العلامة، جاء الخبر بأن الدجال فيما سيأتي من حال يكون فيه حُرّا إلا من دخول المدينة، أنه سيترصد بها من خارجها واقفا على «أرض سبخة»، وذلك كما هو معلوم من حديث النبي ﷺ: «يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، وهو خير الناس»[94]، و«السبخة»، كما ورد في لسان العرب لابن منظور هي: «الأَرض المالحة»، والسَّبَخ: «المكان يَسْبَخُ فَيُنْبِتُ المِلْحَ وتَسُوخُ فيه الأَقدام»[95].

ثم يأتي الدليل المباشر على التجانس بين طبيعة الدجال والملح: وهو حديث قتل الدجال عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليه جيش من أهل المدينة يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون: لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذا أقيمت الصلاة نزل عيسى

---

(93) أخرجه ابن ماجة في (الفتن) / باب: الملاحم «2/1370/ح 4094»
(94) صحيح البخاري، رقم: (7132).
(95) لسان العرب لابن منظور.

ابن مريم ﷺ فأمهَّم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله بيده فيريهم دمه في حربته»[96].

وأصل التجانس بين الدجال والملح هو أن الشر مفتقر للوجود أصلا، ومن هنا كان الذوبان مثالاً للشر، وعقوبة عليه، وذلك باعتبار أن الجزاء من جنس العمل ولذلك كان الذوبان والشر المطلق جنساً واحداً وهو العدم[97]، وقد عبر القران عن هذا المآل في مثل المشرك فقال: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) (الحج:31).

يقول سيد قطب: «وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه» [98].

وهناك ملاحظة خطيرة خاصة بذوبان الدجال كالملح وهي أن الذوبان عقوبة من أراد بالمدينة سوءا أو كيداً، كما قال رسول الله ﷺ «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع، كما ينماع الملح في الماء» [99]، وقال: «لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء» [100].

وواضح من الأحاديث أن صورة الإذابة كما يذوب الملح في الماء هي أشد صور الجزاء ولذلك ضربت مثلاً لمن أراد سوءاً أو كيداً بالمدينة، وهي الصورة التي سيقتل بها الدجال، وبذلك يضاف إلى طبيعة الدجال المتجانسة مع الملح سبباً آخر للذوبان وهو عداء الدجال للمدينة، وعقوبته بعقاب أعداء

(96) رواه مسلم في كتاب الفتن 34.
(97) يراجع كتاب شفاء العليل لابن القيم تفسير قول رسول الله ﷺ «الخير بين يديك والشر ليس إليك».
(98) في ظلال القرآن، تفسير سورة الحج، الآية المذكورة.
(99) رواه البخاري عن سعد.
(100) رواه أحمد ومسلم، وابن ماجة عن أبي هريرة، ومسلم عن سعد.

المدينة، ويتساوى مع الملح في دلالته على طبيعة الدجال الدخان.

الدجال والدُّخَان

وشواهد هذه الدلالة تبدأ منذ ولد ابن صياد وهو الصورة الإنسانية للدجال أو المثل الكوني له، تحت قطيفة يهمهم فأدنته أمه فقالت: «يا عبد الله، هذا أبو القاسم قد جاء فاخرج إليه من القطيفة» فعن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ مر بابن صياد في نفر من أصحابه، فيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب - أي ابن صياد - مع الغلمان عند أطم بني مغالة[101]، وهو غلام، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ، ظهره بيده ثم قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فقال له النبي ﷺ: آمنت بالله ورسله، ثم قال له النبي ﷺ: ما يأتيك؟ قال: يأتيني صادق وكاذب، فقال له النبي ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال رسول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئة وخبأ له (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) (الدخان:10)، قال ابن صياد: «هو الدخّ»، فقال رسول الله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «إن يكن فلن تسلط عليه -يعني الدجال -وإلا يكن فلا خير في قتله» [102].

وتتوالى شواهد دلاله الدخان علي طبيعة الدجال حتى آخر أيامه حيث سيحاصر المؤمنين في «جبل الدخان»، فعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض اليوم منها كالسنة واليوم منها كالشهر واليوم منها كالجمعة ثم سائر أيامه كأيامكم هذه وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعا فيقول للناس أنا ربكم وهو أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر مهجاة يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله عز وجل عليه وقامت الملائكة بأبوابها معه جبال من خبز والناس في جهد إلا من اتبعه ومعه نهران أنا أعلم

---

(101) الأطم: الدار المربعة

(102) صحيح، أخرجه البخاري برقم 6173.

بهما منه نهر يقول الجنة ونهر يقول النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة قال وتبعث معه شياطين تكلم الناس ومعه فتنة عظيمة يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس فيقول للناس أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب قال فيفر الناس إلى جبل الدخان في الشام فيحاصرهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدا شديدا ثم ينزل عيسى عليه السلام فينادي من السحر فيقول يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى هذا الكذاب الخبيث فيقولون هذا رجل جني فينطلقون فإذا هم بعيسى عليه السلام فتقام الصلاة فيقال له تقدم يا روح الله فيقول ليتقدم إمامكم فيصلي بكم فإذا صلى صلاة الصبح خرج إليه قال فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء فيمشي إليه فيقتله حتى إن الشجر والحجر ينادي هذا يهودي فلا يترك ممن كان يتبعه أحد إلا قتله»[103].

أما تفسير دلالة الدخان على طبيعة الدجال فهو الأمر الذي يعود بنا إلى معنى كلمة «دخان» وخصوصاً إذا علمنا أن الدلالة مرتبطة بالاسم، حيث أن البداية كانت مجرد كلمة مخبئة من رسول الله ﷺ له، وفي النهاية كانت مجرد اسم للجبل: «جبل الدخان».

ولكننا نفاجأ بتفسير كلمة: «دخان» لنجدها علامة الدجال من بدايته إلى نهايته، فقد جاء في لسان العرب: «فالدخن: الرجيع من الطعام الذي يتجنبه الناس، والدخان: الجدب، والدخان: الجوع ليبس الأرض من الجدب وارتفاع الغبار فشبه غبرتها بالدخان حتى قيل لسنة المجاعة: «سنة غبراء»، والدخان: الشر، وضعت العرب الدخان موضع الشر إذا علا يقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان، والدخن: رجل دخن متغير الدين والعقل والحسب، ودخن الخلق: ساء وفسد وخبث، والدخن: الغم، وليلة دخنانه: أي شديدة الغم، والدخن: الفتنة ستكون فتنة دخنها من تحت قدم رجل، والدخن: هدنة على دخن شبهها بدخان الحطب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر»[104].

---

(103) أخرجه أحمد في (مسنده) «367/3»، وذكره الهيثمي في (المجمع) «344/7»، وقال رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

(104) لسان العرب: مادة دخن

ومن تحميل كلمة الدخان ومشتقاتها يتبين التوافق بين الكلمة والدجال، فمن حيث فتنة الدجال هي فتنة الجوع، كان الدخان: الرجيع من الطعام الذي يتجنبه الناس، وكان الدخان: الجدب، وكان الدخان: هو الجوع، ومن حيث أن فتنة الدجال هي فتنة الشر، كان الدخان هو الشر الذي يعلو، وكان الدخان السواد، وكان الدخان هو الغيم، وكان الدخان من حيث الخلق هو السوء والفساد والخبث، ومن حيث أن الدجال فتنة عن الدين، كان الدخان هو الفتنة، وكان الدخن هو تغير الدين والعقل والحسب، ومن حيث أن الدجال علامة خداعية: كان الدخن هو الخداع، لما في حديث هدنة على دخن[105]، وصفت بذلك لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر يعني الخداع.

وقد اجتمعت عناصر تفسير الدخان في علاقاته بالدجال بصورة واقعية في عدة علاقات قامت بين الدجال والشياطين والذهب والنساء واليهود.

وتبعية الشياطين للدجال لها قاعدة، وهي ارتباط المكانة بدرجة الإفساد[106]، وبتلك القاعدة يصبح للدجال على الشياطين الرئاسة والسيطرة، ذلك أن ولاء الشياطين للشر ولمن يحقق أكبر قدر منه، أما تبعية النساء فهي من تبعية الشياطين، وذلك باعتبار طبيعة العلاقة بين النساء والشياطين[107]، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «منزل الدجال في هذه السبخة فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى أن الرجل ليرجع إلى زوجته وإلى أمه وإلى ابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة لأن تخرج إليه»[108]، يضاف إلى طبيعة العلاقة بين النساء والشياطين، علاقة النساء بالذهب، لأن حب النساء للذهب.

وفي النهاية، فإن أهم ما يفسر تبعية النساء للدجال هو اقتران طبيعتهم بالفتنة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟

---

(105) عند أحمد «403/5»، وأبو داود «59/2»، والبغوي «9/15»، من حديث حذيفة وأصلة في الصحيحين ولفظ أبي داود قلت: يا رسول الله ما الهدنة على دخن؟ قال: «لا ترجع قلوب أقوام إلى ما كانت عليه»، وعند البخاري ومسلم وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخن» قال: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر»، الحديث.

(106) انظر كتاب: (عندما ترعى الذئاب الغنم) للكاتب.

(107) لمصدر السابق.

(108) خرجه أحمد في (مسنده) «67/2»، وذكره الهيثمي في (المجمع) «346/7».

وماذا انزل الله من الفتن؟ من يوقظ صواحبات الحجر لكي يصلين رُبَّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة» [109].

واليهود هم الذين ارتبطوا بفتنة النساء ارتباطا قائما بقيام الدنيا، كما في الحديث: «اتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فان فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [110]، واليهود هم الذين عبدوا الذهب:﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾(طه: 88).
وعلى هذا الأساس تكون فتنة الدجال غير منفصلة عن الواقع البشري الممتد حتى ظهوره، وان تسلط الدجال وتبعية الشياطين والنساء والذهب له هي في حقيقتها عقوبة لذنوب عاش عليها الناس طول حياتهم.

وبهذا الاعتبار جاء تحذير جميع الأنبياء من الدجال كما قال النبي ﷺ: «ما من نبي إلا أنذر قومه الدجال» [111] فتكون دلالة هذا الإنذار هي ما يتعلق بفتنة الدجال من فتن دون أن يظهر بنفسه، وهذا ما علَّمنا إياه رسول الله ﷺ عندما أمرنا أن نتعوذ دبر كل صلاة من الفتن فقال: «اللهم أني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال» [112].

وحتى ما بعد الدجال سيبقى تسلط الشياطين على الناس، وبنفس القاعدة وهي أن التسلط يكون امتدادا لذنب وقع فيه هؤلاء الناس وبقوا عليه [113]، مثل الناس الذين ستقوم عليهم الساعة، وقال فيهم رسول الله ﷺ: «فيتمثل لهم الشيطان فيقول إلا تستجيبون؟! فيقولون: فما تأمرنا؟ يأمرهم بعبادة الأوثان» [114].

---

(109) أخرجه البخاري في «العلم والعظة بالليل» (115).
(110) خرجه مسلم في (الذكر والدعاء والاستغفار) / باب: الرقاق «55/1/6 – النووي».
(111) أخرجه البخاري في الفتن / باب: ذكر الدجال «96/13، 97/ ح 7127».
(112) تقدم.
(113) مثل ذنب الربا الذي قال الله فيه: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس».
(114) مسلم، كتاب (الفتن) / باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض (301/9/ح2940».

هكذا، ألا تستجيبون؟ ودون أن يعلموا الأمر يعلنون الخضوع، فما تأمرنا؟ وهذه هي العبودية، الخضوع المطلق وعلى الغيب للشيطان، بسبب عبوديتهم السابقة والتي أصبحوا بها كالبهائم والحمر وعقول الطير وأحلام السباع كما وصفهم النبي ﷺ.

ومن أهم الذنوب التي يتحقق بها تسلط الشياطين وتبعية الدجال ذنب التقليد، لأن هذا الذنب هو الذي امتد به الكفر حتى وقت الدجال وكان سبب بقائه وأصبح تقليد الآباء في الشرك هو نفسه صورة تسلط الشياطين.

كما قال رسول الله ﷺ: «إن الشياطين تتبع الدجال فيقول: إن من فتنة الدجال أن يقول للأعرابي أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان يا بني اتبعه فانه ربك» (115).

وتبقي ملاحظة هامة في الحديث وهي صفة الرجل الذي يكلمه الدجال، وهي أنه أعرابي، ولهذه الصفة معناها، ففي تفسير الحديث يقول عبد الله بن مسعود عندما ذكر عنده الدجال: «يفترق الناس عند خروجه ثلاث فرق: فرقة تتبعه وفرقة تلحق بأرض آبائها بمنابت الشيح وفرقة شط الفرات» (116).

وبذلك يعتبر عبد الله بن مسعود منابت الشيح بأنها أرض البادية وعندما قال أرض الآباء، فيكون هذا معناه أن الأعراب هم الذين سيلحقون بالبادية، وهي حالة نفسية يدخل فيها الإنسان عندما يشعر بالخوف، أي يأوي إلى أصله ومنبته وبيئته الأصلية، ولكنها فرقة هالكة (117)، لأنه من الواجب عليهم أن يأووا إلى الله عز وجل.

---

(115) بن ماجة وإسناده قوي واللفظ له.
(116) ذكره صاحب (عقد الدرر) «2:48».
(117) لأن الدجال سيتبعهم إليها.

وبمجرد أن يقتل الدجال عل يد عيسى ابن مريم عليه السلام، تكون قد حسمت قضية الربوبية ونفت عمن سوى الله، فعيسى الذي يزعمون أنه إله من دون الله ينفي هو ذلك بنفسه فيقتل بيده أكبر من زعم هذا الزعم لنفسه، ليتحقق أكبر إنكار لأكبر كذبة، لأن الإنكار ترجع درجاته إلى أمرين: الشخص الذي يُنِكر، والأسلوب الذي يُنكَر به، وعندما يكون الشخص الذي ينكر هو نبي الله، والأسلوب هو القتل، يكون هذا دليل على غضب الله على الدجال، ولذلك يقول النبي ﷺ: «اشتد غضب الله على عبد قتله نبي أو قتل نبياً»[118]، وهذا يفسر اختصاص عيسى بقتل الدجال.

وهذا الاختصاص لعيسى بقتل الدجال يتبع قاعدة عامة في الاختصاص وهي التناسب، والتناسب هنا هو التضاد بين عيسى ابن مريم والدجال.

ولهذه القاعدة نضرب مثالاً معروفاً، وهو اختصاص النبي ﷺ بالشفاعة دون عيسى ابن مريم، لأن أهل الموقف عندما يذهبون لعيسى الذي لم يذكر له ذنب، مما يتوهم منه الدليل علي استحقاق عيسى للشفاعة[119]، ولكن الشفاعة إنما تكون للبشر وهم موقوفون في يوم الحشر بذنوبهم، فيصبح مقام من هو مغفور الذنب أنسب للاستحقاق من مقام الذي لم يذكر له ذنب، لأن مغفور الذنب تحقق فيه اسم الله الغفور بأتم صورة، قال تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) (الفتح1-3)، وتحقيق اسم الله الغفور بهذه الدرجة هو أساس استحقاق رسول الله ﷺ للشفاعة في الموقوفين بذنوبهم، وبهذه القاعدة نشأ التناسب بين عيسى الذي أثبت لنفسه كل صفات العبودية لله علي الرغم من ادعاء الضالين له الألوهية وبين الدجال الذي ادعى لنفسه صفات الألوهية، وقد اجتمعت له كل صفات

---

(118) أخرجه الحاكم في (مستدركه) «275/4» ولفظه عن أبي هريرة: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله ﷺ واشتد غضب الله على رجل سُمي ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل»، وأحمد في (مسنده) «317/2» بلفظ: «اشتد غضب الله عز وجل على قوم فعلوا برسول الله ﷺ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته، وقال: اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ أيضاً " «492/2) بلفظ الذي عند الحاكم.

(119) أخرجه البخاري في (التفسير) / باب: «ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكوراً» «4712/247/8»، ومسلم في (الشفاعة) / باب: منه «65/3 – 69، النووي»، وأحمد في (مسنده)

النقص والقبح والشر والضرر الذي لا نفع فيه.

نسل إسماعيل والدجال

وبمثل ما كان من تناسب بين عيسى والدجال، وما صدر من هذا التناسب من ضرورة قتل عيسى للدجال، كان التناسب بين «نسل إسماعيل» وبين الدجال هو ما جعل هذا النسل أشد أمة النبي عليه، ويعود هذا التناسب إلى الحقائق القدرية المتعلقة بإسماعيل نفسه، والمضادة في جوهرها للدجال، فمن البداية نرى تجاوز إسماعيل وأمه فتنة الجوع والموت، عندما ترك «إبراهيم» عليه السلام هاجر وابنها في وادي غير ذي زرع قالت له: آلله أمرك بهذا؟ فأشار إليها أي نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا» [120].

ومن تحت قدم إسماعيل تتفجر بئر زمزم، لتكون حياة إسماعيل وهاجر وتبقى البئر حياة للأمة، وتبقى فاعليتها القدرية خيراً مطلقاً: «ماء زمزم لما شُرب له»[121]، فيجتمع في ماء البئر كل النفع فيتقابل الخير المطلق مع شر الدجال المطلق الذي لا نفع فيه، ثم يتجاوز إسماعيل الموت مرة أخرى عندما يأمر الله إبراهيم أن يذبح ولده إسماعيل: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)(الصافات:102-105).

ثم يكبر إسماعيل ليذلل الله له الخيل كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: «كانت الخيل وحشية، فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام» [122]، وهي الخيل التي انعقد في نواصيها الخير إلى يوم القيامة كما أخبر النبي ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ وَالْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [123].

---

(120) تقدم تخريجه.
(121) مسند أحمد بن حنبل 14555.
(122) تفسير ابن كثير/ قول الله عز وجل: «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة».
(123) مسند أحمد بن حنبل برقم: (18925).

وقد بلغ التناسب بين إسماعيل والدجال حدا إن الله قد وضع «حلقة من نحاس» على حلق إسماعيل تمنع ابراهيم من ذبحه من الحلق، اختبارا من الله له، فيذبح ابنه من القفا، وأن الله سبحانه أيضا قد عصم الشاب الذي ذبحه الدجال وأصر على الكفر به من أن يذبحه مرة أخرى بحلقة من نحاس أيضا، ففي الحديث: «فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائما، قال ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلا..»، وهكذا ينجو إسماعيل من فتنة القتل في أول أمر الأمة، كما ينجو فتى الدجال من فتنة القتل في آخر الزمان، فلا يضرهما فتنة الموت والدجال بعد ذلك، ويبقى فضل إسماعيل في ذريته، حتى يلتقي مع فضل شاب آخر الزمان.

إن موقف إسماعيل ليس موقفاً عارضاً ولكنه موقف باق، وبقاؤه من خلال ذرية إسماعيل أيسر أسباب البقاء لأن الموقف باقٍ مع بئر زمزم ومع الكعبة ومع السعي بين الصفا والمروة، فكل هذه الأمور هي آثار هذا الموقف الباقية حتى آخر الزمان، فكيف لا يمتد الموقف نفسه حتى الدجال، ليكون نسل إسماعيل أشد الأمة على هذا الدجال، وهم المنتصرون على فتنة الجوع والموت، أصحاب الموقف الأصليين، لذا كان التقابل مع طبيعة هذه الآثار وعمل الدجال، فالدجال لا يدخل مكة، لا يدخل البلد الذي فيه بئر زمزم والكعبة، والصفا والمروة.

ويبلغ التقابل مداه بين هذه الآثار وطبيعة عمل الدجال في بئر زمزم، فأعمال الدجال السحرية تعكس قصد الناس، فمن يقصد شيئاً من عمله يجد عكسه، ومثال ذلك يقصد جنته ويجدها ناراً على وجه الحقيقة، أما زمزم فأثرها تابع لمقاصد من يشربها، سبحان الله، زمزم لما شربت له، الماء واحد والقصد يتحقق من شربها بإذن الله، وهذه هي أفعال الله سبحانه وكمالها، وهذه هي أفعال الدجال ونقائصها.

أما دليل بقاء الفضل في ذرية «إسماعيل» وأهم شواهده أن تكون ذريته هم أولى الناس بالحرية والنجاة من الرق ولذلك كان النبي ﷺ يحرض على عتق أي عبد أو جارية من نسل إسماعيل، وكان يقول: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل»[124] لأن مضمون هذا الذكر هو مضمون الخير التام، التوحيد، ونفي الشرك وإثبات الملك كله لله، وإثبات الحمد كله لله وإثبات الإحياء والإماتة والقدرة لله وحده، واستحقاق ذرية إسماعيل للعتق والبعد بهم عن الرق جزاء من طبيعة فعلهم، وهم أشد الأمة على الدجال، هم الذين لا ينكسرون أمام فتنة الموت، ولا يضعفون أمام فتنة الجوع، ولا يجرون وراء جبال الخبز والقمح تاركين الدين والعقيدة الصحيحة، فلا يجب أن يكون هؤلاء الأحرار عبيداً بيننا، كيف وهم السادة الأخيار.

الدجال وابن صياد

ولكننا لا يمكن أن نتجاوز علامة الدجال إلا بذكر المشكلة المتعلقة بالعلاقة بين الدجال وابن صياد وهي المشكلة الخلافية المشهورة الباقية من تلك العلامة، هل الدجال هو ابن صياد أم غيره؟

وبتطبيق **مفهوم الإظهار** على علامات الساعة، نفاجأ بحقيقة خطيرة للغاية وهو أن هناك مثال كوني للدجال كحقيقة غيبية، وهذا المثل هو الذي يحسم المشكلة الخلافية الخاصة بالعلاقة بين الدجال وابن صياد وأصل المشكلة أن هناك أحاديث صحيحة تؤكد أن ابن صياد هو بنفسه الدجال وأحاديث صحيحة أخرى تبين أنه ليس الدجال.

ومثال الأحاديث التي تؤكد أنه هو الدجال: عن محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحلف بالله أن ابن صياد الدجال، قال: قلت: أتحلف بالله؟ قال: فإني سمعت عمر يحلف بالله على ذلك عند رسول الله ﷺ فلا ينكره النبي ﷺ»[125]، وعن نافع مولى عبد الله بن عمر رضي

(124) أخرجه البخاري في الدعوات، (6404)، ومسلم (2693).
(125) صحيح، أخرجه البخاري (6835) ومسلم (5219).

الله عنهما أن ابن عمر كان يقول: «والله ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد»[126]، وعن نافع قال: قال ابن عمر: «لقيته مرتين قال فلقيته فقلت لبعضهم هل تحدثون أنه هو قال لا والله قال قلت كذبتني والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالا وولدا فكذلك هو زعموا اليوم قال فتحدثنا ثم فارقته قال فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه قال فقلت متى فعلت عينك ما أرى قال لا أدري قال قلت لا تدري وهي في رأسك قال إن شاء الله خلقها في عصاك هذه قال فنخر كأشد نخير حمار سمعت قال فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت وأما أنا فوالله ما شعرت قال وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها فقالت ما تريد إليه ألم تعلم أنه قد قال إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه»[127].

أما الأحاديث التي تنفي كون ابن صياد هو الدجال فأهمها: حديث تميم الداري الذي رأى الدجال موثوق في أحد الجزر [128].

اختلاف أقوال العلماء في ابن صياد

وكما اختلفت الأحاديث الصحيحة كذلك كان رأي العلماء.

قال الخطابي: «قد اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافاً شديداً وأشكل أمره حتى قيل كل قول»، ثم قال: «والذي عندي أن هذه القصة إنما جرت معه أيام مهادنته ﷺ اليهود وحلفاءهم، وذلك أنه بعد أن قدم المدينة كتب بينه وبين اليهود كتاباً صالحهم فيه على ألا يهاجروا، وأن يتركوا على أمرهم وكان ابن صياد منهم أو دخيلاً فيهم» [129].

وحاصل كلام الخطابي أنه لا يرى أن ابن صياد هو الدجال بل هو من الكهنة أو السحرة له شيطان يخبره ببعض الغيب فيخطئ ويصيب كما جاء في شأن الكهان والله أعلم.

---

(126) سنن أبي داوود: في خبر ابن صياد (4330).
(127) صحيح، أخرجه مسلم 2932.
(128) صحيح مسلم: باب الفتن وأشراط الساعة: قصة الجساسة. (5235).
(129) شرح النووي على مسلم، باب ذكر ابن صياد.

وقال القرطبي: «كان ابن صياد على طريقة الكهنة يخبر بالخبر فيصح تارة ويفسد أخرى، فشاع ذلك ولم ينزل في شأنه وحي، فأراد النبي ﷺ سلوك طريقة يختبر حاله بها، أي فهو السبب في انطلاق النبي ﷺ إليه، وقد روى أحمد من حديث جابر قال «ولدت امرأة من اليهود غلاما ممسوحة عينه، والأخرى طالعة ناتئة، فأشفق النبي ﷺ أن يكون هو الدجال»، وللترمذي عن أبي بكرة مرفوعا: «يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثين عاما لا يولد لهما ثم يولد لهما غلام أضر شيء وأقله منفعة»[130]، قال ونعتهما فقال: أما أبوه فطويل ضرب اللحم كأن أنفه منقار، وأما أمه ففرضاخة أي بفاء مفتوحة وراء ساكنة وبمعجمتين، والمعنى أنها ضخمة طويلة اليدين» قال فسمعنا بمولود بتلك الصفة، فذهبت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه، يعني ابن صياد، فإذا هما بتلك الصفة» ولأحمد والبزار من حديث أبي ذر قال بعثني النبي ﷺ إلى أمه فقال: سلها كم حملت به فقالت حملت به اثني عشر شهرا، فلما وقع صاح صياح الصبي ابن شهر»، فكأن ذلك هو الأصل في إرادة استكشاف أمره»[131].

قال البيهقي في شرحه لحديث «يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثون عاما لا يولد لهما»: «فِيهِ أَنَّ الدَّجَّال الْأَكْبَر الَّذِي يَخْرُج فِي آخِر الزَّمَان غَيْر اِبْن صَيَّاد، وَكَانَ اِبْن صَيَّاد أَحَد الدَّجَّالِينَ الْكَذَّابِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ ﷺ بِخُرُوجِهِمْ، وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرهمْ وَكَانَ الَّذِينَ يَجْزِمُونَ بِابْنِ صَيَّاد هُوَ الدَّجَّال لَمْ يَسْمَعُوا بِقِصَّةِ تَمِيم، وَإِلَّا فَالْجَمْع بَيْنهمَا بَعِيد جِدًّا إِذْ كَيْفَ يَلْتَئِم أَنْ يَكُون مَنْ كَانَ فِي أَثْنَاء الْحَيَاة النَّبَوِيَّة شِبْه الْمُحْتَلِم، وَيَجْتَمِع بِهِ النَّبِيّ ﷺ وَيَسْأَلهُ أَنْ يَكُون فِي آخِرهَا شَيْخًا كَبِيرًا مَسْجُونًا فِي جَزِيرَة مِنْ جَزَائِر الْبَحْر مُوثَقًا بِالْحَدِيدِ يَسْتَفْهِم عَنْ خَبَر النَّبِيّ ﷺ هَلْ خَرَجَ أَوْ لَا؟ فَالْأَوْلَى أَنْ يُحْمَل عَلَى عَدَم الِاطِّلَاع» [132].

وقال الإمام النووي في باب ابن صياد: «قَالَ الْعُلَمَاء: وَقِصَّته مُشْكِلَة، وَأَمْره مُشْتَبَه فِي أَنَّهُ هَلْ هُوَ الْمَسِيح الدَّجَّال الْمَشْهُور أَمْ غَيْره؟ وَلَا شَكّ فِي أَنَّهُ دَجَّال مِنْ الدَّجَاجِلَة، قالَ الْعُلَمَاء: وَظَاهِر الْأَحَادِيث أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ

---

(130) مسند أحمد بن حنبل برقم (20013)، والترمذي برقم (2180).
(131) كلام القرطبي هو نقلا عن ابن حجر من فتح الباري شرح صحيح البخاري.
(132) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: كتاب أخبار الآحاد.

بِأَنَّهُ الْمَسِيح الدَّجَّال، وَلَا غَيْره، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ بِصِفَاتِ الدَّجَّال، وَكَانَ فِي اِبْن صَيَّاد قَرَائِن مُحْتَمِلَة، فَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيّ ﷺ لَا يَقْطَع بِأَنَّهُ الدَّجَّال وَلَا غَيْره، وَلِهَذَا قَالَ لِعُمَر رَضِيَ اللَّه عَنْهُ: «إِنْ يَكُنْ هُوَ فَلَنْ تَسْتَطِيع قَتْله» وَأَمَّا اِحْتِجَاجه هُوَ بِأَنَّهُ مُسْلِم وَالدَّجَّال كَافِر، وَبِأَنَّهُ لَا يُولَد لِلدَّجَّالِ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ هُوَ، وَأَنْ لَا يَدْخُل مَكَّة وَالْمَدِينَة وَأَنَّ اِبْن صَيَّاد دَخَلَ الْمَدِينَة، وَهُوَ مُتَوَجِّه إِلَى مَكَّة، فَلَا دَلَالَة لَهُ فِيهِ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ إِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ صِفَاته وَقْت فِتْنَته وَخُرُوجه فِي الْأَرْض، وَمِنْ اِشْتِبَاه قِصَّته وَكَوْنه أَحَد الدَّجَاجِلَة الْكَذَّابِينَ»(133).

وقال ابن حجر: «وأقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال، أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقاً، وأن ابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجيء المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها» (134).

ثم علق ابن حجر على تأكيد جابر رضي الله عنه بأن ابن صياد هو المرئي في حديث الجساسة، بقوله:
«في كلام جابر إشارة إلى أن أمره ملتبس وأنه يجوز ما ظهر من أمره لا ينافي ما توقع منه في خروجه آخر الزمان، وقد أخرج أحمد من حديث أبي ذر: لئن أحلف عشر مرات أن ابن صياد هو الدجال أحب ألي أن أحلف مرة واحدة أنه ليس هو» (135)، وفي كلام الحافظ ابن حجر دلالة واضحة على ميله للأخذ برأي عمر بن الخطاب.

رأي أبو نعيم الأصبهاني: قال الحافظ ابن حجر: «أخرج أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان ما يؤيد كون ابن صياد هو الدجال، فساق من طريق شبيل عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهودية فرسخ يعني أربعة أميال فكنا نأتيها، أي القرية اليهودية، فنمتار(136) ما نحتاج إليه فأتيتها يوماً فإذا اليهود يزفون

---

(133) شرح النووي على مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد.
(134) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر.
(135) المصدر السابق.
(136) نمتار أي: نشتري.

ويشربون ويضربون بالدفوف، فسألت صديقاً لي منهم فقال لي: هذا ملكنا الذي نستفتح به على العرب يدخل، فبت عنده على سطح فصليت الغداة فلما طلعت الشمس، إذا الرهج من قبل العسكر فنظرت فإذا رجل عليه قبة من ريحان واليهود يزفون ويضربون فنظرت فإذا هو ابن صياد»[137].

ومن مجموع الأحاديث الصحيحة المؤكدة لكون ابن صياد هو الدجال، والأحاديث الصحيحة النافية لكون ابن صياد هو الدجال، ومن مجموع أقوال الصحابة المؤكدة والنافية، يلزم الجمع بمثل ما قال الإمام النووي: «وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح ولا غيره وإنما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة».

وبذلك يكون القول الأقرب في المسألة ما قاله ابن حجر: «وأقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال، وأن الدجال «بعينه» هو الذي شاهده تميم موثقاً، وابن صياد شيطان تبدى في «صورة» الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان» [138]، وبذلك يتحقق التفسير الصحيح في المسألة وهو أن ابن صياد ليس الدجال بعينه ولكن ابن صياد صورة كونية للدجال، باعتباره حقيقة غيبية.

ثالثاً: عيسى ابن مريم

والأساس في هذه العلامة هو قول الله عز وجل: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (الزُّخرُف:61) وقد جاءت الأقوال متعددة في تفسير وصف عيسى ابن مريم بأنه «عِلم للساعة»، إلا أن جميعها تتجه نحو تصور منهجي محدد لعيسى ابن مريم كعلامة من علامات الساعة.

فقد قيل في معنى «علم للساعة» أنه: أمارة ودليل على وقوعها، وقيل: «خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة[139]، وقيل:

---

(137) فتح الباري شرح صحيح البخاري.
(138) المصدر السابق.
(139) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير عن ابن عباس، وفتح القدير تحت رقم «11136».

آية للساعة، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، أما القول بأنه أمارة ودليل على وقوع الساعة، لأن معجزته هي إحياء الموتى بإذن الله وهذا الإحياء، دليل في ذاته، على القيامة.

والقول بأنه خروج عيسى قبل يوم القيامة، لأن بقاءه حياً حتى آخر الزمان دليل على الساعة، أما القول بأنه آية للساعة، فذلك لأن «آية» مرتبطة بعيسى ابن مريم في القران بكونه ولد من غير أب، وهذه الولادة هي، في ذاتها، آية من آيات الخلق البشري، وقبل إثبات أن هذه الولادة آية للساعة سنستطرد في إثبات قانون القسمة الرباعية، لأن هذا الخلق خاضع لقانون القسمة الرباعية وهو قانون عام للخلق ودلائل هذا القانون، في إطار الخلق البشري قول الله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ 50﴾ (الشورى 49:50)، وفي خلق أعمال البشر جاء قول الله عز وجل: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ (سورة ص:45).

حيث جاء في تفسيرها أن الناس أربعة أنواع: مَن عنده قدرة بغير بصيرة في العمل، ومَن عنده بصيرة بغير قدرة على العمل، ومَن يملك القدرة والبصيرة معاً، ومَن لا يملك القدرة والبصيرة معاً.

وفي خلق أعمال البشر أيضا من حيث الإخلاص والمتابعة: من الناس من يتابع بغير إخلاص، من الناس من يخلص بغير اتباع، من الناس من يخلص ويتابع، من الناس من لا يخلص ولا يتابع، وعن أبي كبشة عُمَر بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثاً فاحفظوا، قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه أو يعلم لله فيه حقاً فهو بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد

رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»[140].

فإذا عدنا إلي عيسى ابن مريم نجد أنه قسم وحده في القسمة الرباعية، ذلك أن الخلق من حيث التوالد: إما أن يكون من غير أب وأم مثل آدم، وإما أن يكون من أب ومن غير أم مثل حواء، وإما أن يكون من أب وأم وهم جميع الخلق، وإما أن يكون من أم من غير أب وهو عيسى ابن مريم، ومن هنا كان خلق البشر آية وكان عيسى وحده آية أما علاقة هذا المعني بالساعة، فإن الساعة لم تكن تقوم إلا بعد تمام الأقسام الأربعة أو بعد تمام الخلق البشري، ولما تحقق التمام بخلق عيسى، كان ذلك آية على الساعة.

وهذه هي **المرحلة الأولى** في معني الآية:﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾، وهي مرحلة عيسى في الحياة الدنيا، أما **المرحلة الثانية**: فهي مرحلة عيسى في إطار العلامات وفي هذه المرحلة نجد أن عيسى ليس مجرد علامة من العلامات ولكنه علامة لكل علامات الساعة الكبرى، فكونه يصلي خلف المهدي فهذه علامة على المهدي، وكونه يقتل الدجال فهذه علامة على الدجال، وكونه يأوي بعباد الله من يأجوج ومأجوج إلى جبل الطور فهو علامة على يأجوج ومأجوج.

ولذلك ارتبطت علامة عيسى بآخر زمن العلامات وهو قتل يأجوج ومأجوج، بل وقذف أجسادهم في البحر، ففي الحديث بعد أن ذكر النبي ﷺ قتل الدجال ثم قتل يأجوج ومأجوج، وقذف أجسادهم في البحر قال: «ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك نهراً فإن الساعة كالحامل المتم التي لا يدري أهلها متي تفاجئوهم بولادتها ليلاً أو نهاراً» [141].

---

(140) أخرجه أحمد في (مسنده) «231/4»، والترمذي في (الزهد) / باب: مثل الدنيا أربعة نفر «652/4/ح 2325»، وابن ماجة في (الزهد) / باب: النية «1431/2/ح 4228»، والبغوي في (شرح السنة) «289/4، 290 / ح 4097» من حديث أبى كبشة.

(141) مسند أحمد بن حنبل 3375

واستمراراً في تحليل علامة عيسى ابن مريم في إطار العلامات، نجد أن إيمان أهل الكتاب به قبل موته كما قال الله سبحانه:﴿ وَإِن مِّنْ أهل الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(النساء:159)، ونجد كذلك أن عيسى بنفسه سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

فبذلك يصير الدين ملة واحدة، وهو الوضع البشري الذي ستقوم عليه الساعة، ليصبح هذا الواقع كما كان في بداية الخلق، حيث كان الخلق أمة واحدة كما قال الله:﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(البقرة:213)، ويعود أمة واحدة بفعل عيسى بإذن ربه.

أما **المرحلة الثالثة** فهي: يوم القيامة ذاته، حيث سيقف عيسى شاهداً على وحدانية الله أمام جميع الخلائق: «وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:117- 118).

وبعد تحليل موقف عيسى، نجد أن عيسى علامة للساعة في الدنيا وفي علامات الساعة والساعة بصورة جوهرية جعلته في إطار العلامات علامة على كل العلامات الكبرى، ولما كان مجموع العلامات هو الذي يفيد العلم، أنطبق على عيسى هذا اللفظ القرآني: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ (الزخرف:61)، والحقيقة أن للعلاقة بين عيسى والساعة أصلاً قرآنيا من خلال معنى الإرادة والمشيئة والقدرة الإلهية المطلقة، حيث لم يُذكر في القران تعبير: «كن فيكون» إلا في ثمانية مواضع أربعة متعلقة بعيسى ابن مريم، وأربعة متعلقة بقيام الساعة، والأربعة الأولي جاءت في سورة البقرة آية 117، آل عمران:47- 59، مريم:35، والأربعة الأخرى جاءت في سورة الأنعام آية: 73، والنحل:40، يس: 82، غافر:68.

والحقيقة أن حكمة الزمان والمكان في نزول عيسى أمر كان في غاية الروعة، فمن حيث الزمان كان صلاة الصبح، وصلاة الصبح هي أقوي

موانع الفتن، ولذلك قال رسول الله ﷺ في حديث نزول الفتن عن أم سلمة قالت: استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحبات الحجر فربَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» (142).

وقال ﷺ: «إني لأرى الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» (143)، وذلك لأن صلاة الليل حرز من الفتن، صلاة الصبح تعدل قيام الليل كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلى العشاء في جماعة كأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة كأنما قام الليل كله» (144)، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان صلاة الصبح تجعل صاحبها في ذمة الله، كما قال النبي ﷺ: «من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله حتى يمسي» (145).

ومن ناحية ثالثة، فإن التقابل بين صلاة الصبح والدجال، أن صلاة الصبح خير من الدنيا وما فيها، وأن فتنة الدجال هي شر الدنيا كما قال النبي ﷺ: «يتبعه اليهود والمال والنساء والشياطين» (146).

وقد يكون ملاحظاً أن الكلام عن المسيح عيسى ابن مريم كان أقل في العلامات، والحقيقة غير ذلك، لأن علامة المسيح ابن مريم متداخلة مع أكبر العلامات ومجموعها مثل المهدي، والدجال ويأجوج ومأجوج، فيكون الكلام عن علامة المسيح عيسى ابن مريم، حقيقة، قد نال أكبر حيز من التصور المنهجي للعلامات.

رابعاً: يأجوج ومأجوج

كان يأجوج ومأجوج فوق الأرض فأفسدوا فيها، فأخفاهم الله عز وجل وراء الردم الذي بناه ذو القرنين، وبذلك فرق الله بين المفسدين وغير المفسدين،

---

(142) تقدم تخريجه.
(143) أخرجه البخاري (فضائل المدينة) / باب: أحكام المدينة «1878/113/4».
(144) أخرجه مسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) «157/5/2، النووي»، وأبو داود في ((الصلاة)) / «149/1/ح 555».
(145) أخرجه مسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) / «158/5/2، النووي»، وأحمد في (مسنده) «312/4».
(146) أخرجه أحمد «216/4»، والطبراني في (الكبير) «51/9/ح 8392»، وذكره الهيثمي في (المجمع)

حتى إذا فسد أهل الأرض وأصبحوا مثل يأجوج ومأجوج، فعندئذ فإن حكمة التفريق بين البشر المفسدين وبين يأجوج ومأجوج تنتفي، فلا يكون هناك حكمة في التفريق بينهما فيخرج يأجوج ومأجوج إليهم وبذلك يدخل يأجوج ومأجوج تحت الردم بسُنَّة الله الثابتة ويخرجون إلى الناس من تحت الردم بسنة الله الثابتة أيضاً، لأن سنة الله الثابتة هي: **التفريق بين المختلفين، والجمع بين المتماثلين.**

وهذا تعريف ابن تيمية لسنة الله الثابتة الذي أورده في كتاب النبوات، فيقول في سياق حديثه عن المعجزة: «وكثير من هؤلاء مضطربون في مسمى العادة التي تخرق والتحقيق أن العادة أمر إضافي فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم فهذه إذا خرقت فليست إلا لصدق النبي لا توجد بدون صدقه والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الفتح:23)، وقال: « اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا »(فاطر:43)، وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين»[147]

وفي هذه السنة الثابتة جاء قول الله عز وجل عن يأجوج ومأجوج: (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) (الكهف: 97– 99).

ولذلك جاء في تفسير الآية الأخيرة قول السدي: «ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال» [148] حتى أن هناك قولاً آخر يؤكد معنى السنة الثابتة: «التفريق بين المختلفين والجمع بين المتشابهين» وهو إذا ماج الجن والإنس في آخر الزمان يختلط الجن والإنس، لأن ظهور الجن

---

(147) رسالة النبوات: ابن تيمية: فصل سنة الأولين.
(148) تفسير ابن كثير: آية «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج».

والإنس والاختلاط بينهما سيحدث عندما يكون الإنس مثل الجن وأعمالهم فيظهرون لهم، تماماً مثلما يظهر يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

وبالنظر إلى ما ذكرناه في تعريف العلامة من أنها فعلا إلهيا جامعا فقد جمع الله في يأجوج ومأجوج كل صفات الفتن التي ستمر بها الأمة بحيث تتحقق في فتنة يأجوج ومأجوج الطبيعة الكاملة للفتنة، ابتداءً من البداية اليسيرة للفتنة، وهي فتنة الرجل في أهله وماله وانتهاء بالفتنة التي تموج كموج البحر، بحيث تمثل هذه البداية وتطورها مرحلية أساسية في تطور الفتن، وقد جمع حديث عمر هذين النوعين.

فعن حذيفة ابن اليمان أنه قال: «بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: لا بل يُكسر، قال عمر: إذن لا يُغلق أبداً، قلت: أجل، قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، فهبنا أن نسأله مَن الباب فأمرنا مسروقاً فسأله: من الباب؟ قال: عمر»[149].

وقد حدد هذا الحديث المرحلة الأساسية لتطور الفتن، وقد وصف النبي ﷺ هذا التطور من خلال رد الفعل الإنساني تجاهها فقال: ستكون فتن يرقق بعضها بعضاً، وفي حديث آخر يصف النبي ﷺ تطور الفتنة وتصاعدها منظورا إليها من موقف الإنسان منها، وذلك في حديث عبد الله بن عمر بن العاص، يقول فيه النبي ﷺ: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيرا لهم وينذرهم ما يعلمه شرا لهم وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وإن آخرهم يصيبهم بلاء وأمور ينكرونها ثم تجيء فتن يرقق بعضها بعضا فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف ثم تجيء فتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف فمن سره أن يزحزح عن النار ويدخل

---

(149) صحيح، أخرجه البخاري (7096).

الجنة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر»[150].

ونلمح حركة التصاعد في الفتنة أيضا في حديث عبد الله بن عمر، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ قعودا فذكر الفتن فأكثر ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي فتنة هرب وحرب ثم فتنة السراء دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني إنما وليي المتقون ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة فإذا قيل انقطعت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا حتى يصير الناس إلى فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد»[151].

وقول رسول الله ﷺ: «فانتظروا الدجال من يوم أو من غداة» يدل على أن الفتن بطبيعة تصاعدها ستبلغ فتنة يأجوج ومأجوج ولتتضمن فتنة يأجوج ومأجوج كل فتنة ستظهر، وبجانب طبيعة التصاعد في الفتن تأتي طبيعة العموم، وهي السنة الثابتة بقول الله عز وجل: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:25)، ويفسر النبي ﷺ صفة العموم أو التعميم بتشبيه وقع الفتن في الواقع مثل مواقع القطر، وذلك فيما رواه أسامة بن زيد قال: «أشرف النبي ﷺ على أطم من الآطام، فقال: «هل ترون ما أرى؟ إني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر».

ومظهر العموم في فتنة يأجوج ومأجوج مفهوم من وصف الله سبحانه وتعالى لهم بأنهم: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) (الأنبياء:96)، فيصف النبي ﷺ حالهم بقوله: «فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولننازلن أهل السماء» [152].

---

(150) صحيح، أخرجه مسلم (3437).
(151) أخرجه أبو داود في الفتن باب: ذكر الفتن ودلائلها «4242/92/4»، عن عبد الله بن عمر كنا قعوداً عند رسول الله فذكر الفتن، الحديث، وفيه قال قائل: يا رسول الله ما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي هرب وحرب».
(152) ابن ماجة، برقم (4079).

ولما كانت فتنة يأجوج ومأجوج هي ذروة تصاعد الفتنة، فإنها قد احتوت على عناصر الفتنة بشكل مكثف، ومنها:

الظلمة: والإشارة إليها في فتنة يأجوج ومأجوج مأخوذة من التشارك في الصيغة بين بداية خبرين عن النبي ﷺ، الأول يقول فيه: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا قليل، المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر أو قال على الشوك» [153]، والثاني يقول فيه: «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج وعقد بيديه عشرة قالت زينب قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال إذا كثر الخبث» [154].

ومنها **فتن القتل والدماء**، وفيها يقول رسول الله ﷺ قال: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقي الشح، وتظهر الفتن ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله أيهما أشد؟ قال: القتل القتل» [155].

والدلالة على فتنة القتل من فتنة يأجوج ومأجوج ظاهرة، ولعل أخطرها بلوغهم مرحلة قتال أهل الأرض واتجاههم إلى قتال أهل السماء.

ومنها فتنة اللسان: وفيها يقول النبي ﷺ «إنه ستكون فتنة وستصيب العرب، قتلاها في النار، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف» [156].

والإشارة إلى فتنة اللسان في فتنة يأجوج ومأجوج مفهومة من رمزية الكيفية التي يخرجون بها من السور بحسب ما أورده كعب الأحبار من أن خروجهم من السور سيكون بلحسه بألسنتهم [157]، ويكون اللسان في هذه الفتنة كوقع

---

(153) أخرجه مسلم في (الإيمان) / باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن «410/1/ ح 118».
(154) تفسير ابن كثير، قوله تعالى: «وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض. ».
(155) أخرجه البخاري في (الأدب) / باب: حسن الخلق «471/10/ح 6037»، والفتن «7061/16/13».
(156) أخرجه أبو داود في (الفتن) / باب: كف اللسان «99/4/ح 4265».
(157) أورد ابن كثير هذا القول عن أبي هريرة عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه _ أي السور _ فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون غدا نفتحه فيأتون من الغد وقد عاد كما كان فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون

السيف.

وقد شاء الله عز وجل ألا يتوقف التماثل بين يأجوج ومأجوج والكفار من البشر في الإفساد ودرجته فقط، وألا يتوقف التماثل بينهما في طبيعة الفتنة وعناصرها المذكورة فقط بل قد بلغ الأمر تماثلاً عددياً دقيقاً بين الكفار من البشر منذ آدم حتى قيام الساعة وبين يأجوج ومأجوج، وذلك مستفاد من حديث النبي ﷺ: «يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى، ولكن عذاب الله شديد، فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجلا» [158].

يأجوج ومأجوج والتتار

لا يمكن الحديث عن يأجوج ومأجوج دون التطرق لمسألة العلاقة بين يأجوج ومأجوج وبين التتار، ومن وجهة نظرنا فهذه العلاقة متماثلة تماما، من حيث مبدأ صدورها، مع تلك العلاقة بين المسيح الدجال وابن صياد، فكلاهما تشابه مربك لا يمكن تجاوزه إلا بمعالجة المسألة في ضوء فكرة «الأمثلة الكونية للحقائق الغيبية»، باعتبار غيبية «يأجوج ومأجوج» ثم ما يجمع بين «يأجوج ومأجوج» وبين «التتار» من مشهد «الخروج الفجائي للخراب».

والواقع أن الحقائق التاريخية والخبرية المتعلقة بـ«الأتراك» هي همزة وصل ما بين يأجوج ومأجوج وبين التتار، فالثابت عرقيا أن «الأتراك» هم من جنس المغول، وأن موطنهم الأول هو وسط آسيا، وهو موطن التتار.

فذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون غدا نفتحه ويلهمون أن يقولوا إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه

(158) صحيح البخاري، رقم: (6530).

وقد نقل ابن كثير عن بعض العلماء أنهم سموا تُركاً لأنهم تركوا خلف السد، يقصد سد يأجوج ومأجوج، فقال: «إنما سمي هؤلاء تركاً، لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة».

وقال القرطبي: «وقال السدي والضحاك: الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت في هذا الجانب، قال السُّدي: بُني السدّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك»، ثم علق القرطبي على هذا فقال: «قلت: وإذا كان هذا، فقد نعت النبي ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج، فقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانِّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر ويمشون في الشّعر»، ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرتهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام :«اتركوا الترك ما تركوكم»، وقد خرج منهم في هذا الوقت (يقصد وقت فاجعة التتار) أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم» أ. هـ. كلام القرطبي.

وبالنظر إلى هذه الصلة العِرقية والتاريخية والخبرية بين التتار وبين يأجوج ومأجوج، فقد نقل الطبري والرازي والشوكاني كلاما لبعض العلماء من أن «السدين» هما جبلين بين أرمينية وبين أذربيجان، وكلاما للبعض الآخر بأنهما عند «منقطع أرض الترك» (159).

ثم يأتي «سور الصين العظيم»، وهو المقابل الحسي للحقيقة الخبرية المتعلقة بالسد المانع من خروج «يأجوج ومأجوج»، وهو السد الذي بني خصيصا لصد الهجمات المتكررة لقبائل التتار على الصين، وهو السور الذي كان انهياره أمامهم مقدمة لغزوهم العالم.

أما «الحدب» الوارد في الآية: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) (الأنبياء:96)، فقد اعتبرها البعض، استئناسا بما تقدم،

---

(159) يراجع تفسير الطبري والرازي والشوكاني، قوله تعالى: «إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض» الكهف: 94.

أنها «هضاب» منغوليا التي كانت منطلق التتار، فقد ورد في لسان العرب: «وفي حديث يأْجُوجَ مأْجوجَ: وهم مِن كل حَدَب يَنْسِلُون؛ يريد: يَظْهَرُون من غَلِيظِ الأَرض ومُرْتَفِعها، وقال الفرَّاءُ: مِنْ كُلّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، مِنْ كُلِّ أَكَمَةٍ، ومن كل مَوْضِع مُرْتَفِعٍ، والجَمْعُ أَحْدابٌ وحِدابٌ، والحَدَبُ: الغِلَظُ من الأَرض في ارْتِفاع»[160].

لكن في مقابل دلائل التماثل تأتي دلائل الاختلاف لتحول دون القول بأن «يأجوج ومأجوج» قد خرجوا بالفعل، وأنهم هم التتار المعروفين تاريخيا، كما ذهب إلى ذلك بعض ذوي النزعة المنكرة للغيب من المعاصرين، وصحيح أنهم قد دعموا موقفهم بخبر عن النبي ﷺ يقرر فيه أن العالم لن ينقضي فور خروج «يأجوج ومأجوج»، وذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»، فنزول عيسى عليه السلام سابق على خروج «يأجوج ومأجوج» ولكنه غير سابق على خروج «التتار»، واحتراز عيسى عليه السلام بالمؤمنين بجبل الطور منهم ثابت في آخر الزمان لا في زمان خروج «التتار»، ثم إن انتهاء أمر «يأجوج ومأجوج» إنما هو بالنغف [161] كما صح في الخبر عن النبي ﷺ، أما خلاص المسلمين من هجمة «التتار» فكان على يد المصريين في عهد بيبرس.

لكن مع ذلك تبقى دلالة التداخل بين عناصر التماثل وعناصر الاختلاف بين «يأجوج ومأجوج» وبين «التتار»، لقد ذهب البعض إلى حل للمسألة بأن افترض أن خروج «التتار» هو أول خروج لـ «يأجوج ومأجوج»، لكن هذا القول وإن كان الأقرب إلى الصواب مقارنة بنفي العلاقة أصلا، إلا أنه لا يقصر عن الإجابة على التساؤل حول العلة من هذا الخروج الجزئي لـ «يأجوج ومأجوج».

الحقيقة أن واقعة خروج التتار هي تمثيل كوني لحقيقة خروج «يأجوج ومأجوج» باعتبارها حقيقة غيبية لا بد لا من «مثال كوني» ظاهر، تماما كما كان للمسيح الدجال حقيقة تمثله هي «ابن صياد».

---

(160) لسان العرب لابن منظور: مادة ح د ب

(161) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة منها نغفة وهو أيضاً الدود الأبيض الذي يكون في النوى، وما سوى ذلك من الدود فليس بنغف، والعرب تقول لكل ذليل حقير: ما هو إلا نغفة، لأن النغفة المستحقر. (لسان العرب)

دلالات يأجوج ومأجوج على طبيعة الفتنة

إن هلاك يأجوج ومأجوج بقدر الله عز وجل، دون أسباب بشرية تعنى حقيقة منهجية مهمة، وهي أن الفتنة لا يمنعها إلا الله، أو يقضى عليها إذا ظهرت أحد غيره سبحانه، والدور البشري محدود باللجوء إلى الله عز وجل منها.

ومحدودية الدور البشري في مواجهة الفتنة ترجع إلى حقيقة وطبيعة الفتنة ذاتها، فالفتنة حالة استثنائية يضيع فيها مفهوم الحق ويتبدد صوابه، فلا يرى الإنسان فيها الصواب: «حتى تدع الحليم حيران»، وقد أخذت الفتنة هذه الطبيعة لأنها من بدايتها تغليب للعقل على النص وهو ذنب عقوبته الفتنة فتصبح الفتنة بعد الاصطدام بينهما «العقل والنص»، ضياع عن العقل وضلال عن النص، ولأن الفتنة من بدايتها تصرف ذاتي غير منضبط شرعاً، فتكون الفتنة هي الحالة التي لا ينفع معها التصرف، لتصبح تخبطاً وأفعالاً غير مقصودة.

والفتنة خروج بالواقع عن حكم الشرع، فتكون العقوبة أن تظل الفتنة وقعاً غير محكوم، وتكون الفتنة بؤرة دائرة بمن فيها لا يملك فيها الإنسان اتخاذ موقف ثابت فتكون الحركة قسرية وتصبح كل حركة ضارة، ولهذا كان النائم فيها خيراً من الجالس، والجالس خيراً من الواقف، والواقف خيراً من الماشي [162]، فيكون الصواب هو الثبات وعدم الحركة.

ولأجل أن اللسان هو أخطر أداة للتصرف غير المحكوم، كان للسان وقع السيف في الفتنة، لأن الكلمة التي لا يملكها صاحبها، يكون مسئولاً عنها، وهو غير قادر عليها، ولذلك كان مثلها مثل ثور هائج خرج من جحر صغير لا يستطيع أن يرجع إليه، ولا يستطيع أحد التحكم فيه [163].

---

(162) أخرجه أبو داود في الفتن باب: النهى عن السعي في الفتنة «4/ 96 / 4256»، عن أبى بكرة معروفاً وفى أوله: «أنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، الحديث».
(163) تراجع أحاديث الإسراء والمعراج وفيها ثم أتى على قوم تُقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على= =جحر صغير

ولكن الفتنة بطبيعتها لا تتجاوز حدودها، فتقف عند الشرع، وتقف عند الطاعة، وتقف عند الحق، ولذلك وقفت فتنة يأجوج ومأجوج عند جبل الطور الذي كان فوقه كلام الله مع الإنسان، وتلقى عليه موسى الألواح المكتوبة بيد الله سبحانه. (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:51-52).

وكلمة «من بعده» تشير إلى عتابهم على اتخاذهم العجل بعد ما كان بينه وبين الله من كلام على جبل الطور وتلقيه الألواح منه، وأن موقف موسى عليه السلام كان موقفا لا تقبل معه الفتنة.

والموقف الجامع لتفسير معنى الفتنة بكل أبعادها، هو ذلك الجزاء الذي جعله الله على بني إسرائيل بعد اتخاذهم العجل، وهو أن يقتل بعضهم بعضاً، لأنهم تخلو عن الحب في الله، بعد أن أُشربوا العجل بكفرهم في ظلمة، لأنهم كانوا في ظلمة العجل وفتنته، فلا يدري أحدهم من يقتله أو من يحاول قتله، لأنهم خرجوا عن نظام ربهم وحدوده، ولا يملك موسى إلا السجود لله، حتى يعفوا عنهم، ولا يعفو عنهم إلا بعد قتل سبعون ألفا في ليلة، وإلى الله ترجع الأمور.

ولعل الطور كان ملجأ عيسى ومن معه من أجل هذا المعنى، ولكن هلاك يأجوج ومأجوج لا يكون إلا بعد ما يرغب عيسى إلى ربه، وذلك ما يثبت القاعدة بين الرغبة إلى الله وبين طلب الامتداد والحياة، ومثل ذلك تحقيق الاستجابة لدعاء زكريا بالولد في قوله سبحانه: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (الأنبياء:90).

وفى توجيه الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام للدنيا بعد العبادة جاءت سورة الشرح: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) (الشَّرح:7) إذا فرغت من عبادتك

يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع ردها.

فاتجه إلى حياتك، والى ربك فارغب.

و عن خباب بن الأرت وكان شهد بدراً مع رسول الله ﷺ أنه راقب رسول الله ﷺ الليلة كلها حتى كان الفجر، فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته جاء خباب فقال يا رسول الله: بأبي أنت وأمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها، فقال رسول الله ﷺ «أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألت الله فيها لأمتي ثلاث خصال فأعطاني أثنين ومنعني واحدة، سألت ربي ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل ألا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها، وسالت ربي عز وجل يُلْبِسَنَا شيعاً فمنعنيها»(164)، و بذلك يرتبط معنى الرغب بطلب الامتداد والبقاء، وهو مضمون النجاة من فتنة يأجوج ومأجوج بقتلها ودمارها.

إخراج الأرض بركاتها

وهي العلامة التي ستكون بعد قتل يأجوج ومأجوج وفيها إثبات: لعلاقة التقابل بين البركة والفتنة، ودليل ذلك حديث الجرة التي أهدتها أم أوس البهزية لرسول الله ﷺ، وفيه: «أنها أسلت سمناً له في عكة ثم أهدته للنبي ﷺ فقبِله وأخذ ما فيها، ودعا لها بالبركة وردها إليها فرأته ممتلئاً سمناً، فظنت أنه لم يقبلها, فجاءت ولها صراخ فقال ﷺ: «أخبروها بالقصة»، فأكلت منه بقية عمر النبي ﷺ وولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وولاية عمر رضي الله عنه وولاية عثمان رضي الله عنه حتى كان بين علي ومعاوية ما كان»(165)، وكذلك ارتباط البركة بامتناع المعاصي والفساد في الأرض ذلك لأن البركة تمتنع بالفساد بدليل قوله تعالى(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (المائدة:65)، وعندما يموت يأجوج ومأجوج والكافرون معهم، حيث لن يبقى إلا المؤمنون المعتصمون بحبل الطور فإن الفساد يكون قد امتنع في باطن الأرض وظاهرها، فتخرج الأرض بركاتها، وذلك من حديث النواس بن سمعان وفيه: «ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك ورُدي بركتك فيومئذ تأكل

---

(164) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في تفسير قوله تعالى: «ويذيق بعضكم بأس بعض»، «ح 7415».
(165) الإصابة في معرفة الصحابة، ابن حجر العسقلاني، فصل: من عرف بالكنية من النساء.

العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها يبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس».(166)

خامسا: الدابة

وإذا أردنا فهم الحكمة من خرج الدابة لا بد لنا من التقديم لهذا بفهم العلاقة بين الأرض وعمل الإنسان من حيث الخلق، ومن حيث الأثر، ومن حيث الختم والشهادة.

أما من حيث الخلق: فقد حدد الله سبحانه هذه العلاقة بقوله عز وجل: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) (النجم:32)، فالإنسان مرتبط في عمله بمادة خلقه.

أما من حيث الأثر: فإن لطبيعة الأرض وعمل الإنسان علاقة ثابتة مباشرة فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من جميع الأرض فمنه السهل والحَزَن الأبيض والأسود» (167).

وأما من حيث الختم والشهادة: ففيها الحديث الذي رواه أبو هريرة حيث قال: «قرأ رسول الله ﷺ: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) (الزلزلة:4)، فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا قال فهذا إخبارها، فهذا أمرها فهذه أخبارها» (168)، لذا لزم أن تتابع الأرض عمل الإنسان حيث تشهد عليه، فلزم كذلك أن تختم على الإنسان عمله، لأنه موضوع شهادتها.

---

(166) المستدرك على الصحيحين (8555).
(167) أخرجه أبو الشيخ في العظمة «ح 1023» وله شاهد من رواية ابن منبه أيضاً في (العصمة) «ح1022»، هو ضعيف لأن ابن منبه يحدث عن بني إسرائيل.
(168) صحيح أخرجه الترمذي برقم: (8669).

ولكن الأرض لا تستطيع ختم العمل وهي في صورتها التي هي عليها، فحينئذ يبدأ ظهور الدابة كصورة جديدة للأرض، لتتمم الختم، ولتكون علامة الدابة المتولدة من الأرض لتحكم عليهم وتختم على أعمالهم، وكما كانت الأرض ذلولاً للإنسان، أصبح الإنسان ذللاً للأرض في صورة هذه العلامة الخارجة منها.

والحقيقة أن علاقة الإنسان بالأرض جعلت الأرض تتأثر بعمل الإنسان وبصورة تستوجب أثراً للأرض في الإنسان يقابل أثر الإنسان فيها، ومن أمثلة هذا التأثر الزلازل التي تكون بسبب الزنا كما قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا» (169).

وكلها أحوال تدل على اضطراب الوجود الإنساني، فرفع العلم تغيب به الأحكام الضابطة لحركة الإنسان، وشرب الخمر يغيب به كذلك انضباط العقل، والزنا يغيب به كذلك نظام النسب والعلاقات ليكون اضطراب الأنساب.

ولما كانت الزلازل عقوبة على هذه الأعمال، ثبت أن الجزاء من جنس العمل، حيث يسبب اضطراب الوجود الإنساني وعقله ونَسَبه اضطراباً في الأرض التي تحمله، لتكون الزلازل، وبذلك تفسر علامة الدابة قاعدة القصاص الكوني الذي سيكون بين الخلائق، ومثاله القصاص الذي سيكون بين الشاة الجلحاء والشاة القرناء، من حديث أبي هريرة: «لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (170) وهذا القصاص المسمى بالقصاص الكوني يختلف عن القصاص التكليفي الذي سيكون بين الأطراف المكلفة.

وهذا المثل المضروب بين الشاتين هو الذي يجعلنا نفهم حقيقة القصاص بين الإنسان والأرض والذي يقتضي أن يكون الإنسان مذللاً للأرض كما كانت الأرض مذللة له.

---

(169) صحيح، أخرجه البخاري برقم (79).
(170) صحيح، أخرجه مسلم برقم (6486).

أما السبب في أن خضوع النوع الإنساني للأرض قد تمثل في جيل واحد من هذا النوع وهو الجيل الأخير منه، فهو أن هذا الجيل هو أكثر الأجيال استغراقا في الظن بأنه قادر على الأرض، ودليل ذلك هو قول الله عز وجل: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس:24)، لتكون الأرض بعد تولد الدابة منها قادرة على البشر كما ظنوا أنهم قادرون عليها.

غير أن العلاقة بين الإنسان والأرض ليست منحصرة بصورة كلية في الدابة في آخر الزمان، فهناك علاقة لا يستثنى منها بشر، وهي: «ضمة القبر»، وهذا فعل الأرض التي تستقبل جزءاً ناقصاً منها، عاد إليها، فعلى الرغم من أنه لن يستثنى منها أحد إلا أن الضمة ستكون متناسبة مع العمل، حتى أنها قد تجعل ضلوع العبد تختلف وتتداخل في جسده، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان وفيه وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري فيقولون: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض: التئمى عليه فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[171].

ويدل على نيابة الدابة عن الأرض في الشهود على الإنسان وفي ختم أعماله، الخروج المتعددة للدابة من مواضع شتى منها، وذلك ما أخبر به النبي ﷺ: «يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية، يعني مكة، ثم تمكث زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة، فيفشو ذكرها بالبادية، ويدخل ذكرها القرية فبينما الناس يوما في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عز وجل، يعني المسجد الحرام، لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو، كذا قال ابن عمر، وما بين الركن الأسود إلى

---

(171) أخرجه الترمذي برقم: (1071).

باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكوكب الدرية، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب»[172].

أما العلة التي لأجلها ختمت الأرض أعمال الناس في صورة دابة، فهي أن هذه الصورة تناسب حالهم حينها، وذلك مأخوذ من قول الله سبحانه وتعالى: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) (النمل:82)، فقوله تعالى هو من قوله أيضا: (وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (هود:36).

وهذه حالة تناسب البهيمية التي ظهرت لأجلها الأرض في صورة الدابة، وذلك من قول الله عز وجل(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان:43-44)، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف:179).

فهذه النصوص وغيرها تؤكد أن الكافر وصاحب المعصية أو الكبيرة من أقرب الناس بالبهائم فإذا كثر هذا الصنف في الناس في أخر الزمان كانوا أقرب إلى البهيمة التي تناسب خروج الدابة لهم كما سيتضح ذلك بإذن الله.

آيات الدابة

والحقيقة أن خضوع الناس للدابة، وتفريق الدابة بين المؤمن والكافر منهم، هو أصل حيازة الدابة لعصا موسى ولخاتم سليمان، وذلك ما ورد في حديث النبي ﷺ: «تخرج الدابة ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان عليه

---

(172) المستدرك على الصحيحين للحاكم.

السلام فتخطم الكافر قال عفان أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى أن أهل الخوان ليجتمعون على خوانهم فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر» [173].

فعصا موسى كانت دائما أداة التفريق، فكان بها انفلاق البحر، وكان بها التفريق بين السحر والمعجزة أمام الناس لما التقمت صورتها الثعبانية ثعابين السحرة، وكان بها انبجاس الصخر عن اثنا عشر عينا ليشرب منها بنو إسرائيل.

وعلى الرغم من القدرة الهائلة والسلطة العظيمة للدابة التي تُثْبتها النصوص الواردة مثل عبارة: «لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب» [174].

فإن هذه النصوص بذاتها تثبت أيضا أنها محكومة بقدر الله عز وجل، ولعل إثبات ذلك من النصوص أمر مهم، فقد سبقت العبارة الدالة على القدرة المذكورة آنفاً عبارة تقول: «وتثبت عصابة من المؤمنين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله»، فالدابة، في تصور المؤمنين، لا تتحرك إلا بإذن الله عز وجل، كما أن خرجتها ستكون محكومة من حيث الأثر والذكر، حيث لن يفشوا ذكرها مكة، إلا في الخرجة الثالثة بعد أن يدخل ذكرها مكة دون أن يفشوا في الخرجة الثانية حيث ذكر رسول الله ﷺ: «إن الدابة لها ثلاث خرجات من الدهر فقد خرجت من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية، أي مكة، ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشوا ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها»[175].

ولعل أروع الألفاظ الدالة على أن الدابة محكومة هي قول رسول الله ﷺ أن الدابة لها ثلاث خرجات من الدهر، لأن الدهر هو الدليل على خضوع الزمان وأحداث الزمان لإرادة الله عز وجل، بدليل قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»

---

(173) مسند أحمد بن حنبل برقم: (7739).
(174) أخرجه الحاكم وصححه وتقدم بتمامه.
(175) الحاكم وصححه تقدم فيما قبله.

[176]، ومن هنا كان النهي عن سب الدهر، فان الأيام والليالي بيد الله عز وجل.

وهذه هي الحكمة، بصفة عامة، في فهم علامة الدابة، ولكن هذه الحكمة لها بقية تفسرها بصورة كاملة، وهي ظاهرة في العلاقة بين الأرض وعمل الإنسان «العلاقة الأولى، المذكورة آنفاً» والتي كان دليلها قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ﴾(النجم:32)، فقد ذكر الله مع علاقة الأرض بالإنسان علاقة أخرى وهى الوراثة التي تبدأ في بطون الأمهات: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ﴾، والوراثة ترجع إلى آدم، وهو أصل الوراثة، ومن هنا أصبح يحكم عمل الإنسان مادة الخلق وهي الأرض وأصل الخلق وهو آدم.

وكما ينتهي حكم الأرض على عمل الإنسان بالختم، فيبقى لحكم آدم، كأصل الوراثة، على عمل الإنسان نهاية توازي الختم وهي بعث أهل الجنة والنار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أول من يُدعي يوم القيامة آدم، فتراءى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم فيقول: لبيك وسعديك فيقول: أخرجْ من كل مائة تسعة وتسعين» [177].

وفي هذا الإطار تُفهم علامة الدابة، لماذا تخرج الدابة من الأرض؟ ولماذا تخرج في صورة دابة؟ ولماذا تخرج من أماكنها المحددة؟ ولماذا تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان؟ ولماذا تختم على أعمال العباد؟ والإجابة على هذه التساؤلات هو إطار فهم هذه العلامة.

---

(176) صحيح، أخرجه مسلم برقم (4172). والبخاري برقم (4826).
(177) أخرجه البخاري في (الرقاق) / باب: الحشر «11 / 385 / ح 6529».

الباب الثالث: التصور المنهجي العام

«المضمون الإنساني للعلامة .. من حيث هو مقصود بها.. ومن حيث هو متلقي لخبرها»

الفصل الأول

المضمون الإنساني للعلامات

«المقصود بالمضمون الإنساني لعلامات الساعة: دلالة الإنسان عليها من خلال طبيعته وأحواله، وتأثرها به وجودا وعدما، ويصدق ذلك الارتباط بين الإنسان وبين علامات الساعة على الإنسان من حيث هو فرد، ومن حيث هو نوع، أي المستوى الفردي والمستوى البشري»

المستوى الفردي للعلاقة بين الإنسان وبين علامات الساعة

والأساس في تفسير علاقة الإنسان بالعلامات هو أن نعلم أن الإنسان ذاته دليل جوهري على القيامة من حيث خلقته، ومن حيث طبيعته، فمن حيث خلقته أصلاً فعلامات الساعة اعتبرت كمرحلة من مراحل تطور خلقته التي بدأت في بطن أمه، لقول الله تعالى:
(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) (المؤمنون:14-15-16).

ويوافق الآية في معناها قول رسول الله ﷺ: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفه ثم يكون علقة

مثل ذلك ثم يكون مضغه مثل ذلك ثم يرسل أليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد» [178]، حيث جمع الحديث بين الإنسان بنوعه وعمله في الدنيا وبين مصيره عند الله يوم القيامة.

أما من حيث اقتران العلامات بالطبيعة الإنسانية، فقد قرن الله سبحانه يوم القيامة بما تدل عليه منها، قال تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة:1-2)، لأن النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها بطبيعتها، وهذا يعني وجود أصل الحساب علي الأعمال التي سيكون عليها يوم القيامة، ثم قال: (بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة:4) وشكل هذه العظام دليل علي القيامة لأن عدم مساواة الأصابع دليل علي أن لكل شيء نهاية، لأن كل أُصْبُع من أصابعه له نهاية.

ومن حيث رده إلي أرذل العمر لتكون نهاية الكيان الإنساني كله ليكون ذلك دليلاً علي أن نهاية الوجود الإنساني كله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) (الحج:5-7). وبهذا الاعتبار يجب أن تكون هناك علاقة بين الإنسان والساعة باعتبار أن الساعة هي نهاية الخلق عامة، والإنسان خاصة.

رفع الأمانة والعلم وارتباطه بالوجود الإنساني

ويلاحظ ارتباط علامات الساعة بالمضمون الإنساني أيضا بتحليل علامتي:

---

(178) أخرجه البخاري في بدء الخلق / باب: ذكر الملائكة «350/6/ح 3208»، ومسلم في (القدر) / باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه «190/16/6، النووي»، وأبو داود في السنة / باب: القدر «227/4/ح 4078».

رفع العلم والأمانة، ففي رفع الأمانة قال ﷺ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ : إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ»(179).

والملاحظة المنهجية في الحديث هي أن الأمانة لا تقبض من قلب الرجل إلا وهو نائم، ولذلك يقول النبي ﷺ: «ينام الرجل النومة، ثم ينام النومة»، وذلك أن الأمانة هي التكليف، والنوم هو الحال الذي يرفع فيه التكليف (180) فيناسب ذلك قبض الأمانة، لأنها أصل التكليف فيناسب قبضها حال رفع التكليف، وأما حقيقة مكانها فهو جذر قلوب الرجال «أي أصل قلوب الرجال»، والنوم هو الحال الذي ينام فيه القلب، لأن الذي لا ينام قلبه إذا نام هم الأنبياء فيناسب حال نوم القلب أن ترفع الأمانة من أصله.

وكما كان رفع الأمانة دليلاً على جوهرية المضمون الإنساني لعلامات الساعة فهناك رفع العلم وهو لا يختلف عن الأمانة في رفعها وفي ذلك يقول ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (181)، ذلك لأن العلم الشرعي علم بالوحي، والوحي روح من الله (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى:52)، ولذلك ناسب أن يكون رفع العلم بانتزاع الروح والموت وبذلك تأكد المضمون الإنساني في صفة الأمانة والعلم.

واختيار مثل الأمانة والعلم في إثبات المضمون الإنساني للعلامات ليس فقط لأن الأمانة والعلم ألصق الصفات وأعمقها في كيان الإنسان بل لأن رفعها،

---

(179) صحيح، أخرجه البخاري في الفتن (6045).

(180) بدليل قول رسول الله ﷺ «رفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ والمجنون حتى يعقل، والغلام حتى يبلغ الحلم».

(181) أخرجه البخاري في كتاب العلم (98).

في نفس الوقت، بداية لرفع الدين والكون، فرفع الأمانة بداية لرفع الأحكام، بدليل قول رسول الله صلى عليه وسلم: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، ثم الصلاة» [182]، ورفع العلم بداية رفع واقع الدين والكون، كما قال ﷺ: «يرفع العلم ويكثر الجهل ويفشو الزنى وتكثر الزلازل»، حتى تكون الساعة الزلزال الأكبر.

المستوى البشري للعلاقة بين الإنسان وبين علامات الساعة

والصيغة المقدرة للوجود البشري بصورته الصحيحة هي الأمة الواحدة التي تعبد رباً واحداً، وهذه الصيغة هي ضمان الوجود البشري حتى قيام الساعة، ولما كانت العلامات هي مقدمة بين يدي الساعة، فإن اعتبار هذه الصيغة القدرية للوجود البشري لابد أن يكون قائماً بصورة واضحة حتى هذه المرحلة، ويستدل على ذلك بقوله ﷺ في الصحيح، من حديث المغيرة بن شعبة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[183]، وفي رواية: «حتى تقوم الساعة»، وفي رواية معاوية في الصحيح أيضاً بلفظ: «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله»[184].

وأيضاً لابد أن يكون مفهوماً أن الساعة هي انهيار الوجود البشري، وأن الأمة هي الصيغة المقدرة لهذا الوجود، ولذا فإن مفهوم الأمة سيبقى معنا في قضية العلامات وذلك باعتبار أن هذه العلامات هي مقدمة انهيار هذا الوجود، حتى قيام الساعة ذاتها.

والأمة عِرق ودين، ولذلك ستكون حقيقة الأمة في تحليل العلامات من خلال العرق والدين، والخط الأول الذي سنتابع به حقيقة الأمة هو تحديد الأمم التي ستدخل مجال العلامات، ونجدها اليهودية والنصرانية والإسلام، ونجد أن عرق اليهود بنو إسحاق، وعرق النصارى الروم بنو الأصفر، وعرق

---

(182) الأحاديث المختارة، 1455
(183) أخرجه البخاري في (الاعتصام بالكتاب والسنة) 7311
(184) أخرجه البخاري في (الاعتصام بالكتاب والسنة) 7312

الإسلام العرب بنو إسماعيل.

وأن ما يفسر مفهوم الأمة في إطار العلامات بصفة أساسية ثلاث حقائق: **الحقيقة الثابتة:** التي تنتظم تحتها الأمم الثلاث «السنن الثابتة للأمة للاتجاه نحو النهاية»، **الحقيقة الجامعة**: التي تجمع بين الأمم الثلاث «الدور الإيجابي»، **الحقيقة الفاصلة**: التي تفصل بين الأمم الثلاث «حقائق الصراع».

ومثال الحقائق الثابتة: الافتراق: كما قال الرسول ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» [185]، و**التقليد:** «كما قال الرسول ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: «فمن؟» [186].

ومثال الحقائق الجامعة هو: بقاء هذه الأمم الثلاث حتى آخر العلامات، بدليل أن الدين لن يكون ملة واحدة إلا على يد عيسى عليه السلام، فمن حيث العرق فإن آخر آثار بني إسحاق هم السبعون ألفاً الذين سيغزون القسطنطينية مع المسلمين، أما نهاية صيغة الأمة اليهودية فإن اليهود سيبقون عليها حتى يقاتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، أما أمة النصارى باعتبار عرقها فإنها ستبقى مع أمة النبي ﷺ حتى آخر الزمان، بدليل قول النبي ﷺ «ستقوم الساعة ويكون الروم أكثر عدداً، أشد الناس عليكم الروم ومهلكهم مع الساعة»[187]، كما قال: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»[188].

---

(185) صحيح سنن أبي داوود، كتاب السنة.
(186) صحيح البخاري.
(187) أخرجه أحمد في (مسنده) «230/4» من حديث المتورد القرشي.
(188) أخرجه مسلم في (الفتن) / باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس «9 / 249/ ح 2898»، وأحمد في (مسنده) «230/4».

ومفهوم العرق في إطار العلامات لا ينتهي عند هذا الحد، بل سيكون له نطاق أوسع في الأمم، حيث يشمل علامة الدجال ويأجوج ومأجوج، لأن الدجال ذُكر كعرق مقابل للعرب، وذلك باعتبار انتسابه إلى اليهودية، بدليل قول رسول الله ﷺ «تغزون جزيرة العرب، تغزون فارس، تغزون الروم، تغزون الدجال» [189].

وقوله: «إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم فتنة من الدجال، قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: العرب يومئذ قليل، وجلهم ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح» [190].

والحقيقة أن التقابل العرقي بين العرب والدجال يرجع إلى أصل العرب وهو سيدنا إسماعيل، حيث يكون مقدار الاقتراب من هذا النسب هو بمقدار التقابل مع الدجال.

المستوى الفردي والبشري للارتباط بين الطبيعة الإنسانية والعلامة

أما الحقيقة الجامعة للمضمون الإنساني لعلامات الساعة بالمستوى الذاتي الفردي والبشري الأممي معاً فهي:

محور العبادة:

ذلك لأن العبادة علة الوجود الإنساني على مستوى الفرد والنوع، كما قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56)، كما أنها هي شرط قيام الأمة الواحدة القائمة بالتوحيد، كما قال تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:92).
ولذلك قال الإمام القرطبي في إثبات العلاقة بين العبادة والسعادة: «ولما كانت العبادة هي علة الخلق كما قال سبحانه:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنسِ إلا

(189) خرجه مسلم في (الفتن) «2900/253/9»، وأحمد في (مسنده) «178/1»، وابن ماجة «4091/1370/2».
(190) أخرجه أبو داود في (الفتن) / باب: خروج الدجال «4322/115/4 ح»، وابن ماجة في (الفتن) / باب: خروج عيسى وخروج يأجوج ومأجوج «4077/1359/2»، من حديث أبي أمامة الباهلي.

لِيَعْبُدُونَ﴾(الذاريات:56) كانت هي علة الوجود وأصبحت كذلك هي الصفة المرجحة للخير والتي تضمن بقاءه، فإذا قطع التعبد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زمناً طويلاً» [191].

ولما كانت الدنيا وعلامات الساعة هما زمناً واحداً لهذا الوجود، كانت العبادة في هذا الزمن الواحد حتماً مقضياً وإلا كان الهلاك والعدم، فقال النبي ﷺ في الدجال: «وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي، فقيل له: يا رسول الله كيف يصلى في تلك الأيام القصار؟ قال: تقدرون فيها الصلاة كما تقدرونها في هذه الأيام الطوال ثم صلوا» [192].

ودليل حتمية العبادة في إطار علامات الساعة هو تأخير رفع الصلاة إلى ما قبل الساعة مباشرة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أول ما يرفع من دينكم الأمانة، وآخر ما يرفع من دينكم الصلاة» [193].

ومن أجل أن معنى العبادة بحتميتها حتى قيام الساعة كانت العبادة مقياساً دقيقاً للوجود من بدايته إلى نهايته فقال ﷺ: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وعملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية يومكم وخذوا أجركم، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان العصر قالوا ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيقال: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقى من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجر الفرقين، فذلك مثلهم مثل...»[194].

---

(191) في التذكرة ومختصر التذكرة للشعراني، ص:141.
(192) أخرجه ابن ماجة في (الفتن) / باب: فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج «2/ 1359 / ح 4077»، وتقدم من حديث أبي أمامة الباهلي.
(193) تقدم تخريجه.
(194) تقدم تخريجه.

ولكن العبادة وأن كانت أساسية للوجود الإنساني في جميع مراحل الخلق، إلا أنها تأخذ صيغاً مناسبة لكل مرحلة من هذه المراحل، فالعبادة في الدنيا مرتبطة بالرسالة والشريعة، لتحقيق صفة الخير المرجحة لبقاء الدنيا حتى مرحلة البرزخ، والعبادة في البرزخ مرتبطة بعلامات الخير لتحقيق صفة الخير المرجحة لبقاء الدنيا حتى قيام الساعة، بصرف النظر عن الرسالة والشريعة التي سترفع في هذه المرحلة.

وفي ارتباط العبادة بعلامات الخير أدلة مباشرة، منها المهدي، فإن بيعته وبداية ظهوره ستكون وهو قائم بين المقام والحجر «حجر إسماعيل»، وهو أفضل موضع للعبادة على الإطلاق، وهو موضع عبادة سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام[195] ومنها نزول عيسى ابن مريم فإنه ينزل عند المنارتين البيضاويتين لمسجد دمشق [196] وستكون أول أعماله هي صلاة الصبح مع المسلمين خلف المهدي في بيت المقدس وهو آخر مواضع العبادة لذلك[197]، وكذلك خروج الدابة من موضع الخير بعد موضعي الشر ليكون هذا الموضع هو ما بين الصفا والمروة.

محور القتال:

بعد حقيقة العبادة باعتبارها شرط بقاء الأمة تأتي حقيقة القتال، وهو الأمر الذي سيبقى حتى ظهور عيسى ابن مريم، قال النبي ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال» [198] وقال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم عند طلوع الفجر، ببيت المقدس ينزل على المهدي

---

(195) تقدم تخريجه.
(196) وهو من حديث النواس بن سمعان، وتقدم.
(197) تقدم تخريجه.
(198) أخرجه أحمد في (مسنده) «429/4»، وأخرجه أبو داود في (الجهاد) / باب: في دوام الجهاد «3/4/ح2484» من حديث عمران بن حصين.

فيقال: تقدم يا نبي الله فصل بنا، فيقول هذه الأمة بعضهم على بعض» [199].

محور الحكم:

وبعد حقيقة القتال يكون الحكم الذي يقوم بعد القتال وتكون به الخلافة، كما قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت» [200].

وبذلك تكون علامات الساعة في إطار جميع الأمم دائرة على هذه الحقائق الثلاث، ولكن هناك بالنسبة للأمة الإسلامية حقيقة خاصة بها وهي آخريتها وبقاؤها حتى آخر الزمان.

وحتى عندما يذكر ضعف الأمة وغلبة الأمم عليها فيجب أن يفهم ذلك من خلال هذه الحقيقة الخاصة، فمثلاً عندما نقرأ حديث رسول الله ﷺ: «توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» [201].

وباعتبار آخرية أمة النبي ﷺ كان قياس زمن الدنيا مرهوناً ببقاء هذه الأمة، كما أخبر النبي ﷺ: «ألا إن مثل آجالكم في آجال الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس» [202].

---

(199) أخرجه مسلم في (الإمارة) / باب: قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين «1923/75/7»، وأحمد في (مسنده) «384/345/3» من حديث جابر بن عبد الله وتقدم تخريجه.
(200) صححه الألباني في تخريجه لمشكاة المصابيح.
(201) أخرجه أحمد في (مسنده) «278/5»، وأخرجه أبو داود في (الملاحم) (4297) من حديث ثوبان.
(202) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (557).

ومنها قول النبي ﷺ: «ما أعماركم من أعمار مَن مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى منه» [203]، ومنه أيضا: «مثلنا ومثل أهل الكتاب كمثل رجل استأجر أجيراً» [204].

وباعتبار آخرية أمة النبي ﷺ أيضاً كان ظهور هذه الأمة إنذارًا بالساعة من خلال علامة القمر، وقد نبهت سورة القمر على اجتماع معنى الإنذار في أمة النبي ﷺ، فتنبهنا إلى الاعتبار الخاص لهذه الأمة في علامات الساعة، لذا أصبحت كل أحوال هذه الأمة داخلة في إطار علامات الساعة.

وبعد تفسير الحقيقة الجامعة للمضمون الإنساني لعلامات الساعة بالمستوى الفردي والبشري، نستمر في إثبات المضمون الإنساني للعلامات من خلال القاعدة العامة في العلامات وهي:

البدء والإعادة:

والحقيقة أن البدء والإعادة من أفعال الله الدالة على قدرته، ولكن مفهوم القدرة الإلهية من خلال البدء والإعادة هو في حقيقته مفهوم إنساني، لأن إثبات القدرة لله من خلاله جاء بالقياس على العقل والتفكير والفهم الإنساني البحت، ودليل ذلك قول الله عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم:27)، إذ إن الحقيقة أن البدء عند الله مثل الإعادة، وليس عند الله سهل وصعب: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس:82)، ولكن القرآن يخاطب البشر وقد استقر في أذهانهم أن الإعادة أهون فيثبت القدرة على أساس ما استقر من فهم في العقل البشري كما يخاطب القرآن العقل البشري على أن قاعدة البدء والإعادة هي منطلق الفهم الكامل لكل آيات الخلق: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

(203) خرجه أحمد في مسنده (116/2) وقيقعان: بضم القاف الأولى وكسر الثانية بلفظ التصغير وهو جبل بمكة إلى جنوبها نحو اثني عشر ميلاً.

(204) خرجه البخاري في: (مواقيت الصلاة) / باب: ما أدرك ركعة من العصر قبل «46/2/ ح 558» من حديث أبي موسى.

يَسِير قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت:19-20)

وهذا هو المضمون الإنساني للبدء والإعادة من حيث الفهم، ثم نأتي إلى المضمون الإنساني للبدء والإعادة من حيث التحقيق، ليثبت أن الواقع الإنساني هو مجال تحقيق هذه القاعدة في سورة يونس: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) (يونس:31-34)

وفي سورة النمل: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل:60-64)،

وفي سورة الروم: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(الروم:17-27)

الفصل الثاني

أسلوب عرض الوحي لعلامات الساعة

«الأسلوب النبوي في الإخبار عن علامات الساعة»

ترتيب العلامات

وقد جاءت نصوص الإخبار على الترتيب بعدة اعتبارات، أهمها:

أولا: أن يكون الترتيب مرتبطاً في جوهره بعلة العلامة وحكمتها، مثل الإخبار عن الدابة والشمس بإطلاق دون ترتيب بينهما، لأن العلة والحكمة فيهما واحدة زمنياً وهي انقطاع العمل البشري وتوقف التحول من الكفر إلى الإيمان وهو الزمن الذي أصبح ظهور واحدة منهما يكفي عن الأخرى، ولذلك قال النبي ﷺ في العلامة من حيث الترتيب: «إذا طلعت إحداهما تبعتها الأخرى».

ثانيا: أن يكون الترتيب شرطاً ثابتاً بين العلامات وهو غير المثال الأول، حتى يبلغ شرط الترتيب أن تكون العلامة بذاتها علامة علي العلامة التي تليها، دون ذكر لفظ السبق أو «واو العطف» ومثال ذلك قول رسول الله ﷺ: «عمران بيت المقدس، خراب يثرب، وخراب يثرب، خروج الملحمة، وخروج الملحمة، فتح قسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»، فجاء تمام كل علامة شرطاً للعلامة التي تليها.

ومن الأمثلة الدالة على ارتباط الترتيب بعلة العلامة هو قول رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً، طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدخان، ودابة الأرض» [(205)].

وكلها علاقة بالعمل، ولذلك بدأ الحديث بقوله: «بادروا بالأعمال ستاً»، والعلاقة هي الفرقان التام بين أعمال المؤمنين والكفار، فالشمس وطلوعها من المغرب لا تتغير بعده الأعمال، والدجال سيكون دليلاً بفِتَنه علي صعوبة الأعمال الصالحة، لأن أتباعه سيكونون أصحاب الشر كله «اليهود، النساء، الشياطين»، والدخان سيكون فرقاناً بين المؤمنين والكافرين في أثره في الناس بحسب الأعمال فيخرج الدخان من جميع منافذ الكافر، ويصيب المؤمن مثل

---

(205) أخرجه مسلم في (الفتن) (2947). وأحمد في مسنده «2/ 324»، وأخرجه أبن ماجة في (الفتن) (4056).

الزكمة [206]، أما الدابة فهي صاحبة الخطم والختم، خطم الكافر علي أنفه وختم المؤمن بالإيمان، وبذلك أصبح العمل محوراً للعلامات ومن هنا كان الترتيب.

ثالثا: ومنها إسقاط اعتبار الترتيب بين العلامات بصفتها الخاصة في إطار الإثبات العام الإجمالي لها، مثل ذكر مجموعة من العلامات باعتبارها مقدمة إجمالية بين الساعة، ولهذا تجد إسقاط اعتبار الترتيب الخاص للعلامات إذا كانت مقدمة إجمالية للساعة، غالباً ما نجد في مثل هذه الأحاديث عبارة: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم لعلي أن أكون أنا أنجو»[207]، وقول النبي ﷺ: «بين يدى الساعة أيام الهرج»[208]، وقول النبي ﷺ: «بين يدي الساعة كذابون منهم صاحب اليمامة ومنهم صاحب صنعاء العنسي، ومنهم صاحب حمير ومنهم الدجال وهو أعظم فتنة»[209]، وقول النبي ﷺ: «بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف»[210].

رابعا: ومنها التعبير عن الترتيب الثابت الواحد بين أمرين باعتبارات متعددة وأشهر ذلك، العلاقة بين بعثة رسول الله ﷺ كعلامة للساعة والساعة ذاتها، فجاءت هذه العلاقة بعدة صيغ أحدها: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطي»[211]، وفي صيغة أخرى يرتفع معنى التلازم إلي معنى التداخل فيقول النبي ﷺ: «بعثت في نفس الساعة»[212]، وفي هذه الصيغة تأتي إضافة خطيرة وهي قوله ﷺ: «وإن كادت لتسبقني»[213]، وتفسيرها هو أن حال البشرية قبل البعثة قد بلغ حدا كان فيه مماثلا لحال البشرية قبل يوم القيامة في الضلال، فكان زوال العالم مستحق قبل البعثة كما سيكون مستحق قبل يوم القيامة، ومقارنة النبي ﷺ بين الحالين

---

(206) راجع العلاقة بين الدجال والدخان في علامة الدجال.
(207) أخرجه البخاري في (الفتن) (7119)، ومسلم في الفتن (19/18/6).
(208) أخرجه أحمد في مسنده «90/4»
(209) خرجه أحمد في (مسنده) «345/2» من حديث جابر بن عبد الله.
(210) أخرجه أبن ماجة في (السنن) / باب: الخسوف «1349/2/ح 4059».
(211) أخرجه مسلم في (الفتن) «315/9/ح 2951» من حديث أنس بلفظ (وضم السبابة والوسطي).
(212) أخرجه الترمذي في (الفتن) / باب: ما جاء في قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين.)) «496/4/ح 2213».
(213) أخرجه أحمد في (مسنده) (348/5» من حديث بريدة بن الحصيب.

واضحة في قوله: «لن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة»[(214)]، وهو فعل كان يفعل قبل البعثة، وسيفعل قبل الساعة.

والإشارة إلى التماثل بين حال البشرية قبل والبعثة وحالها قبل يوم القيامة أيضا مأخوذة من حديث آخر أخبر به النبي ﷺ: «إن الله نظر إلي أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»[(215)].

غير أننا، وفي إطار حدثينا عن التماثل بين واقع ما قبل البعثة وواقع ما قبل علامات الساعة، وفي إطار تفسيرنا لعبارة: «وإن كادت لتسبقني»، لا بد وأن نقف عند واقعة هي أقوى في دلالتها على الارتباط بين البعثة ويوم القيامة، ألا وهي واقعة إجلاء يهود بني النضير من المدينة، وقد كان النبي ﷺ قد هادنهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم، وهي الواقعة التي نزلت فيها الآية: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (الحشر:2).

ووجه دلالة الواقعة على التقارب بين البعثة وبين علامات الساعة، هو أن إجلاء بني النضير عن المدينة هو بداية حقيقية لإحدى العلامات الكبرى للساعة، وهي خروج نار من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر، وذلك أن النبي ﷺ لما طردهم من المدينة سألوه: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[(216)]، وعن الحسن أن النبي ﷺ لما أجلى بني النضير، قال: «هذا أول الحشر، وأنا على الأثر»[(217)].

---

(214) أخرجه البخاري (الفتن) «7116/82/13»، وأخرجه مسلم في (الفتن) (2906/260/9) وأخرجه أحمد في (مسنده)
(215) أخرجه أحمد في (مسنده) «162/4».
(216) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله «هو الذي أخرج الذين كفروا.....»الآية «ح 18850».
(217) تفسير الطبري (20/28) ورواه ابن سعد في الطبقات (42/2) عن هوذة ابن خليفة، عن عوف، عن الحسن به وهو مرسل.

وليست وجهة حشر يهود بني النضير فقط هي وجه التماثل بين واقعة إجلاءهم وبين الحشر العام يوم القيامة، بل إن كيفية هذا الإجلاء أيضا يعطي ذلك التماثل عمقا آخر، فعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»[218]، وهو وصف يقابل الكيفية التي أجلى بها النبي ﷺ بني النضير إلى أرض الشام حيث نقل ابن كثير في تفسير آية الحشر قولا ابن أبي حاتم فقال: «صالح رسول الله ﷺ بني النضير بعد أن غدروا به علي الجلاء بشرط ألا يأخذوا معهم السلاح، وقد أعطي كل ثلاثة بعيراً وسقاءً»[219].

ويؤكد ذلك التماثل إشارة ثالثة قوية في دلالتها عليه، وهي المأخوذة من خبر النبي ﷺ حيث قال: «سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ فَخِيَارُ أَهْلِ الأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ وَيَبْقَى فِي الأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ تَقْذَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ» [220].

والدلالة هنا واضحة، فالنبي ﷺ قد وصف شرار الناس أثناء الحشر الأعظم بأنهم قردة وخنازير، وهو ما وصف به الله سبحانه جنس اليهود الذين كان منهم بنو النضير، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة:60).

أما الإشارة الرابعة على التماثل بين واقعة إجلاء بني النضير وبين علامة الحشر الأعظم يوم القيامة، فهي الحالة النفسية التي كان عليها اليهود أثناء

---

(218) صحيح البخاري برقم: 6522.

(219) أخرجه ابن جرير في (تفسيره) «28/ 22» وانظر فتح القدير «ح 11968» بلفظ عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ قد حاصرها حتى بلغ كل منهم كل مبلغ وفيه: «وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاءً».

(220) سنن أبي داوود برقم (2127)، ومسند أحمد بن حنبل برقم (6694).

الجلاء، فقد كانوا «راغبين وراهبين»، أيضا كما سيكون عليه الناس يوم الحشر الأعظم، وذلك أنهم انقسموا أمام الجلاء إلى فريقين، فريق راغب لما علم من أمر الجلاء وأنه آخر عهدهم بالذل، وفريق راهب لما في إخراجهم من ترك لديارهم وشتات لهم، وهي الحالة التي تماثل حال الناس يوم الحشر الأعظم، حيث أخبر النبي ﷺ عن حالهم وأنهم «راغبين وراهبين» أي طامعين في حسن الجزاء وجزعين من سوء العقاب.

دلالة الألفاظ

الألفاظ والعبارات والصيغ اللغوية التي عرضت بها العلامات في الوحي مرتبطة بمضمون العلامات، ولا يعني تجاهلها إلا قصورا في رؤيتها.

ومن الأمثلة على دقة الألفاظ في عرض العلامات، ما ورد عن بقاء أمر الظهور على الحق في الأمة واستمراره فيها إلى قيام الساعة، وهو الخبر الوارد في الحديث: «لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[221] فقد عبر النبي ﷺ عن بقائهم إلى قيام الساعة ظاهرين على الحق بأن «آخرهم يقاتل الدجال»، وذلك أن مضمون البعثة المحمدية هو «الظهور بها على الرافضين لها منذ أن بشر بها المسيح عليه السلام»، ولذلك كان المسيح هو قاتل الدجال وكاسر الصليب وواضع الجزية لأن محاولة الالتفاف حول البعثة المحمدية كانت من خلاله هو بتحويله إلى إله من دون الله، ولذلك كانت الفئة الظاهرة لابد أن تكون مرتبطة بالمسيح أثناء قتله للدجال.

وما يؤكد حقيقة الظهور كنقض لتأليه المسيح، أو تأليه المسيح كمحاولة لنقض البعثة المحمدية، يمكن ملاحظتها في سورة التوبة، وفي سورة الفتح، وفي سورة الصف، ففي سورة التوبة يقول الله عز وجل: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ

(221) سنن أبي داوود برقم (2155). ومسند أحمد بن حنبل برقم (19073).

بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة:31-33).

وفي سورة الفتح يقول الله عز وجل: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح:29).

وفي سورة الصف يقول الله عز وجل: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (الصف:6-9).

ومثال آخر على ارتباط اللفظ الذي وردت به العلامة بمضمونها، هو قول المسيح الدجال عندما رأى المدينة: «هذا قصر أحمد»[(222)]، فاستخدم اسم «أحمد» ولم يستخدم اسم «محمد»، وهم نفس الاسم الذي استخدمه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (الصف:6).

ودلالة استخدام عيسى ابن مريم لاسم «أحمد» هي أن هذه الصيغة تعني: «أحمد لك»، أي أزكي لك وأختار لك، وهي صيغة مناسبة لحال المسيح

---

(222) أخرجه أحمد في (مسنده) «338/3».

ابن مريم مع النبي ﷺ كمبشر به، فقد ورد في لسان العرب: «أَحْمَدَ الرجلَ إِذا رضي فعله ومذهبه ولم ينشره» [223].

أما دلالة التوافق بين المسيحين في استخدام اسم «أحمد»، فتعود إلى ما بينهما من وحدة كخير وشر مقابل له، أو كمعنى ونقيضه، أو كحق وما يضاهيه من باطل، وليس أدل على هذه الوحدة من نهاية المسيح الدجال لا تكون إلا على يد المسيح ابن مريم، ويشير إلى تلك الوحدة أيضا ما رآه النبي ﷺ في منامه حيث قال: «أراني في المنام عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما ترى من الرجال له لمة قد رجلت ولمته تقطر ماء واضعا يده على عواتق رجلين يطوف بالبيت رجل الشعر فقلت من هذا فقالوا المسيح بن مريم ثم رأيت رجلا جعدا قططا أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية كأشبه من رأيت من الناس بابن قطن واضعا يديه على عواتق رجلين يطوف بالبيت فقلت من هذا فقالوا هذا المسيح الدجال»[224].

ومن **أمثلة** الارتباط بين الألفاظ ومضمونها في إطار عرض الوحي لعلامات الساعة أيضا، حديث «عمران بين المقدس خراب يثرب» [225]، فالمعروف أن اسم يثرب قد تغير إلى «المدينة» بعد الإسلام، ولكن إطلاق لفظ يثرب على المدينة في هذا الحديث يكون معناه عودة المدينة لما كانت عليه قبل الهجرة، وخروج الإسلام منها كما دخلها مع الهجرة، ولذلك يعيد الرسول ﷺ الاسم القديم إلى المدينة ليتفق اسمها مع حالها دائماً.

ومن **قواعد** الارتباط بين الصيغ اللغوية لعرض العلامات وبين مضمون العلامات ذاتها، تعدد المفردات اللفظية في وصف حقيقة واحدة في نصوص متعددة لتغطي جانبا من جوانب تلك الحقيقة مع كل نص، ومثال ذلك وصف الناس الذين ستقوم عليهم الساعة، فقد ورد عن النبي ﷺ أنهم: «شر الناس» وذلك في الحديث: «إن شر الناس الذين تقوم عليهم الساعة»[226]، ثم يقول النبي ﷺ في حديث آخر: «فبينما هم كذلك ـ أي المؤمنين ـ إذ بعث الله ريحاً

---

(223) لسان العرب: مادة ح م د.
(224) مسند أحمد.
(225) صحيح أبي داوود.
(226) أخرجه أحمد في (مسنده) (435/1»، وابن أبي شيبة في (المصنف) «345/3»، وابن خزيمة رقم:389.

طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقي شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»[227]، ففي الحديث إضافة وصفهم بـ «تهارجهم تهرج الحمر»، ثم يأتي حديث ثالث ليصفهم النبي ﷺ فيه بقوله: «يتسافدون تسافد البهائم»، وهو تعميق وتعميم للوصف السابق.

ثم يكون الحديث الرابع: «ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقي علي وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» [228].

قال ـ أي الراوي ـ سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «فيبقي شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن معيشتهم» [229]، وفي الحديث تطور في الوصف، في الحديث الأول مجرد كونهم شرار الناس ليأتي الحديث الثاني فيزيد في وصف أفعالهم تهارج الحمر وسيأتي الثالث ليعمق ويعمم «تسافد البهائم».

والجمع بين الحديث الذي أخبر فيه النبي ﷺ عنهم بأنهم يحشرون مع القردة الخنازير، وبين الحديث الذي أخبر فيه النبي ﷺ عنهم بأنهم يسلمون إرادتهم للمسيح الدجال فيأمرهم بعبادة الأوثان، هو قول الله عز وجل:﴿ وجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾(المائدة:60)، حيث سيُحشرون مع القردة والخنازير وعبدة الأوثان.

ليصبح المعنى العام لمجموع الأحاديث هو إسقاط اعتبار إنسانية هؤلاء الناس فيكون آخر الناس وبقيتهم هم المؤمنين الذي سينجيهم الله من يأجوج ومأجوج، حيث يقول النبي ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى يرفع الله بقية من أهل

---

(227) تهذيب الآثار للطبري برقم (1073).
(228) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة «75/18/6، النووي»، وأخرجه أحمد في (مسنده) «2 /166) والنسائي في (الكبدي) تفسير سورة المزمل «50/6/ح 11629» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(229) أخرجه مسلم في (الفتن) «310/9/ح 2940) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

الأرض»، وهذه هي البقية أما رفعها فهو ما ورد في هذا الحديث الأخير.

التكرار

ومن دلائل الارتباط في الوحي بين اللفظ وبين مضمون العلامة، دلالة التكرار، ومثاله قول النبي ﷺ: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، فقيل يا رسول الله ما يوم الخلاص؟ فقال: يجيء الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد ثم يأتي المدينة فيجد بكل ثقب من ثقابها ملكا مصلتا، فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقة، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه فتخلص المدينة وذلك يوم الخلاص».

وعلة التكرار ليست فقط في بيان أهمية ذلك اليوم، بل في أنه في يوم الخلاص تخرج المدينة ثلث منافقيها ثم كل منافقيها، ومن أجل ذلك كان التكرار.

التفصيل

وهو من عناصر تحقيق اليقين، وأهم الأدلة عليه: قول رسول الله ﷺ بعد ذكر الملحمة «فبينما هم كذلك إذ سمعوا بناس هم أكثر من ذلك، فجاءهم الصريخ، فقال: أن الدجال قد خرج في ذراريهم فيرفضون ما بأيديهم ويقبلون فيبعثون عشر فوارس طليعة قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم وأسماء آباءهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض أو خير فوارس يومئذ» [230]، وواضح من الحديث عنصر التفصيل في وصف الفوارس وخيولهم، مما يزيد الإنسان يقيناً بالحدوث.

وفي حديث النفخ في الصور يصف رسول الله ﷺ حال أول من سيسمع: «ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، قال: فأول

---

(230) أخرجه مسلم في (الفتن) باب: إقبال الروم في كثير القتل عند خروج الدجال «2899/251/9».

من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيُصعق ويُصعق الناس» [231].

وفي حديث هدم الكعبة يقول الرسول ﷺ واصفا ذا السويقتين: «كأني به أسود أفجح يقلعها حجراً حجراً» [232].

ومثاله أيضا، قول النبي ﷺ في آخر الحشر: «تتركون المدينة علي خير ما كانت لا تغشاها إلا العواف - يريد عوافي السباع والطير - وآخر من يحشر راعيان من مُزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشاً حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا علي وجوههما»[233]، وثنية الوداع هي المكان الذي ظهر منه النبي ﷺ للذين كانوا ينتظرونه فوق أعالي النخيل فرأوه قبل أن يدخل المدينة[234]، وتحديد موت الراعيين بهذا المكان معناه أنهما سيموتان قبل أن يدخلاها، ليكون دخول رسول الله ﷺ المدينة أول عمارها ويكون موت الراعيين قبل دخول المدينة آخر خرابها.

الإجمال

ومثاله حديث النبي ﷺ، عن حذيفة قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك فيه شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَّدث به، حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وأنه ليكون منه الشيء قد نسيته فذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم رآه فعرفه» [235].

التناسب بين الخبر وحال النبي أثناء الإخبار

ومثاله حال النبي ﷺ حين أخبر عن حتمية قتال الدجال وهو ملدوغ من عقرب، وذلك فيما رواه ابن حرملة عن خالته قالت: «خطبنا رسول الله ﷺ

(231) أخرجه مسلم في (الفتن) باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض «2940/201/9»، وقد تقدم.
(232) أخرجه البخاري في (الحج) باب: هدم الكعبة «583/2/ح 1595» من حديث ابن عباس.
(233) أخرجه البخاري في (فضائل الساعة) باب: من رغب عن المدينة «1874/107/4»، من حديث أبي هريرة.
(234) أخرجه البيهقي في الدلائل «506/2، 507» عن عائشة وعزاه الحافظ في الفتح «307/7» في شرح حديث البراء في باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، حديث رقم «3925»: لأبي سعيد في كتابه (شرف المصطفي) ورويناه في (فوائد الخلقي) من طريق عبيد الله عن عائشة منقطعاً، لما دخل النبي ﷺ المدينة جعل الولائد يقلن: طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع.
(235) أخرجه مسلم في (الفتن) باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة «242/9 / ح 23»، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وهو عاصب إصبعه ولدغه عقرب فقال: «إنكم تقولون لا عدو لكم، إنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجه، صغار العيون، شهب الشعاف، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة»[236]، والعلاقة بين الخبر وبين حال النبي المخبِر هي أن لدغ العقرب دليل علي بقاء القتال، لأن القتال والعداء متلازمان، ولذلك بيَّن النبي ﷺ أن آخر القتال هو قتل الدجال، فقال: «لا تزال طائفة من أمتي، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[237]، فعندما يتوقف القتال لا يكون عداء ولا يكون لدغ، وهذه هي العلاقة الموضوعية بين القتال ولدغ العقرب.

وهناك علاقة بين العقرب وبين أعدائنا وهي إباحة قتل الجميع في الحل والحرم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:217)، فأباح قتال العدو في الأشهر الحرام فقال ﷺ في ابن خطل: «اقتلوه ولو رأيتموه متعلق بأستار الكعبة»[238]، وقال ﷺ خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرام فذكر منها العقرب [239].

وهناك علاقة بينهما أخرى أن الاثنين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة، وهو يصلي أو لا يصلي، نبي أو ولي، قال تعالى في آيات صلاة الخوف وأخذ الحذر أثناء الصلاة: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء:102)، وفي الحديث:

---

(236) مسند أحمد، (11044).
(237) سنن أبي داوود (2125).
(238) أخرجه البخاري في (جزاء الصيد) «1846»، ومسلم في (الحج) «131/9/3. 132»
(239) أخرجه البخاري في (جزاء الصيد) «1829/24/4»، ومسلم في (الحج) «115/8»

«لدغت النبي ﷺ عقرب وهو في الصلاة فقال لعن الله العقرب ما تدع المصلي وغير المصلي اقتلوها في الحل والحرم»(240)، واشترك العقرب أيضاً مع أعدائنا في اسم «الفسق» وهو وصف لإبليس أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف:50).

وعلاقة أخرى، أنه يجوز قتل العقرب أثناء الصلاة كما يجوز الانشغال بقتل الأعداء أثناء الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:239)، قال ابن عمر: «فإن كان خوف وهو أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً علي أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها»(241)، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ أمر بقتل الأسودين في الصلاة، العقرب والحية»، وعَنْ ابْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَتَلَ عَقْرَبًا وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ.

القرائن الحسية

قال الإمام أحمد: عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتي النبي ﷺ فأذن له، فقال لأم سلمة: «احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فجاء الحسين ابن علي رضي الله عنه فوثب حتى دخل، فجعل يصعد علي منكب النبي ﷺ فقال الملك: أتحبه؟ قال النبي ﷺ: نعم، فقال فإن أمتك تَقْتُلُهُ وإن شئت أَرَيتُكَ المكان الذي يُقتَل فيه، قال: فضرب بيده فأراه تراباً أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها، قال: فكنا نسمع يقتل بكربلاء»(242)، قال رسول الله ﷺ: «لقد دخل عليَّ البيت مَلَك لم يدخل قبلها فقال لي ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك الأرض التي يُقتل بها، فأخرج تربة حمراء»(243).

---

(240) أخرجه ابن ماجة في إقامة الصلاة والسنة بينها «395/1/ح 1246».
(241) أخرجه البخاري في (التفسير) باب: «فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً، الآية» «46/18/ح 4535».
(242) أخرجه أحمد في مسنده «265/3».
(243) أخرجه أحمد في مسنده «294/6».

وعن ابن عباس قال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام نصف النهار أشعث أغير معه قارورة فيها دم فقلت بأبي وأمي يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطه منذ اليوم» [244].

وأخطر ما في هذه الأحاديث هو بقاء دم الحسين والطين الذي سيقبل به الدم كأثر محسوس وقرينة باقية دالة على حدوث القتل كأمر غيبي، ولكن الأثر الذي لا يقل خطراً عن هذا هو أن يكون المَلك الموجود مع رسول الله ﷺ ويخبره بخبر الحسين هو ملك القطر، وتفسير ذلك هو ما تضمنه حديث نزول القطر والفتن، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ» [245]، ومن هذه الأحاديث تتأكد العلاقة المنهجية بين القطر والفتن.

وقد فسر الإمام ابن حجر العسقلاني هذه العلاقة بالتشابه بينهما من حيث إن كليهما يقع على الأرض ثم يعمها وبذلك يجتمع القطر والفتن في الوقوع ثم العموم، ويلي هذا التفسير احتمالان آخران في تفسير العلاقة بين القطر والفتن:

الأول: هو أن يكون ملك القطر مختصاً بالقطر والفتن معاً، لتكون وحدة المصدر والفعل أساساً في التوازن بينهما، باعتبار أن المطر رحمة وهي ما تقابل الفتنة باعتبارها عذاباً.

والثاني: وهو أن يكون للقطر ملك وللفتن ملك، ولكن ملك القطر مسئول عن ملك الفتن مثل مسئولية ملك الحسنات عن ملك السيئات ونفوذ سلطانه عليه في كتابة أعمال العبد، وفي ذلك تغليب للرحمة على العذاب في قدر الله سبحانه وتعالي.

---

(244) المستدرك على الصحيحين برقم (8361).
(245) مسند أحمد بن حنبل: (21202).

أما الملاحظة الأخيرة الواردة في مجموع الأحاديث فهي أن جبريل هو الذي كان مع رسول الله ﷺ كما ذكرت إحدى الروايات، والجمع بين الأمرين هو احتمال وجودهما معاً، جبريل باعتبار مسئوليته عن الملائكة وملك القطر باعتبار مسئوليته عن الحدث، تماماً مثل ما نزل جبريل ومعه ملك الجبال في ليلة الطائف، حيث قال جبريل: «مرني أطبق عليهم الأَخْشَبين» (246).

التأييد بالرؤية المباشرة

وأهم الأحاديث المؤكدة لهذا العنصر هو حديث رؤية تميم الداري للدجال وهو الحديث المعروف بـ «حديث الجساسة» (247)، ونذكر هنا كيف أيد رسول الله ﷺ هذه الرؤية وفيه: «فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مصلاه»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا رهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفأوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً، وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم علي خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في

---

(246) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه «3231/260/6»، وطرفه في البخاري في (التوحيد) باب: «وكان الله سميعاً بصيراً» «7389/384/13»، ومسلم في (الجهاد والسير) باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى

(247) تقدم تخريجه.

أقربها فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يُثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زعر، قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا نعم، كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان عليَّ كلتيهما، كلما أردت أن أدخل واحدة منها استقبلني مَلَك بيده السيف صلتاً يصدني عنها وأن على كل نقب ملائكة يحرسونها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة - يعني المدينة - ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم، قال: «فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هومن قبل المشرق وأومأ بيده إلى المشرق» قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ» [248].

ومن التأييد الرؤية المباشرة: ذكر البخاري في صحيحه - تعليقاً - أن رجلاً قال للنبي ﷺ رأيت السد فقال: كيف رأيته؟ قال: مثل البرد المحبر، قال: رأيته [249].

---

(248) أخرجه مسلم في (الفتن) / باب: قصة الجساسة «2942».
(249) ذكره الحافظ في (الفتح) «445/6».

وقد تكررت رؤية السد في خلافه عمر بن الخطاب عندما بعث عمر بن عبد الرحمن بن ربيعة، يقول ابن كثير في البداية والنهاية: ثم أقبل عبد الرحمن بن ربيعة علي الرسول الذي ذهب إلى السد وكان قد بعث رسلاً إلى عدة بلاد ويقصد ابن كثير أن عبد الرحمن أقبل علي الرسول الذي بعثه إلى ملك البلاد التي فيها السد، فقال ما حال هذا الردم؟ يعني ما صفته فأشار إلى ثوب في زرقة وحمرة فقال: مثل هذا، فقال رجل لعبد الرحمن: صدق، ولقد نفذوا الرأي فقال: أجل وصف صفه هذا الحديد والصفر، قال تعالى: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (الكهف:96).

ومن التأييد بالرؤية المباشرة أيضا، ما أخرجه ابن ماجة عن بريدة رضي الله عنه قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة بأرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله ﷺ «تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا فتر في سبخ» [(250)]، ومنه تشبيه عيسى بن مريم بعروة ابن مسعود في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «فيبعث الله تعالي عيسى ابن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه ويهلكه» [(251)].

ومنه تشبيه الدجال بقطن بن عبد العزى، كما في الحديث: «وأما مسيح الضلالة فأنه أعور العين أجلى الجبهة عريض النحر فيه دفاً كأنه قطن بن عبد العزى، قال: يا رسول الله هل يضرني شبهه؟ قال: لا، أنت امرؤ مسلم وهو رجل كافر» [(252)].

التوازن بين الطمأنة والتحذير في عرض النبي للعلامة

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها إذ قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك؟ قلت: يا رسول الله ذكرت الدجال فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «إن يخرج وأنا حي كفيتكموه وإن يخرج الدجال بعدي فإن

---

(250) تقدم تخريجه.
(251) أخرجه مسلم في (الفتن) باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض «9 / 301 / ح 2940» من حديث عبد الله بن عمرو، وقد تقدم.
(252) تقدم تخريجه، وهو من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الطويل.

ربكم عز وجل ليس بأعور، إنه يخرج في يهودية أصبهان» (253).

ومن ذلك أيضا حديث أم سلمة قالت: ذكرت المسيح الدجال فلم يأتني النوم فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «لا تفعلي فإنه إن يخرج وأنا فيكم يكفيكم الله بي، وإن يخرج بعد أن أموت يكفيكموه بالصالحين ثم قام فذكر الدجال فقال: «ما من نبي إلا قد حذر أمته وأنا أحذركموه أنه أعور وأن الله ليس بأعور، إلا أن المسيح الدجال كأنه عين طافية» (254).

وكذلك حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية قال: كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال، قالت ثم خرج رسول الله ﷺ لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدثهم، قالت: فأخذ بحلقتي الباب وقال: مه مه أسماء، قالت: قلت يا رسول الله خلعت أفئدتنا بذِكر الدجال قال: «فإن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن» (255).

وفي رواية مسلم: عن المغيرة بن شعبة قال: «ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال أكثر ما سألته، قال: وما سؤالك، قلت: إنهم يقولون إن معه جبالاً من خبز ولحم، ونهراً من ماء؟ قال: هو أهون على الله من ذلك» (256)، قال عياض: معناه وهو أهون من أن يجعل ما يخلقه على يديه مضلاً للمؤمنين، ومشككاً لقلوب الموقنين، بل ليزداد الذين أمنوا إيماناً، ويرتاب الذين في قلوبهم مرض، وهو مثل قول الذي يقتله: ما كنت أشد بصيرة مني، لا أن قوله هو أهون عليه من ذلك، إنه لا شيء من ذلك معه.

ولعلنا نلاحظ أن إجابة النبي ﷺ للمغيرة: «هو أهون على الله من ذلك»، كانت لما رأى النبي ﷺ المغيرة قلق من الدجال بصورة غير عادية، بدليل أن المغيرة قال ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته.

---

(253) أخرجه أحمد في مسنده «75/6» من حديث عائشة رضي الله عنها.
(254) أخرجه الطبراني في الكبير «569»، قال الهيثمي في المجمع «7 / 351». قال الذهبي: أسناده قوي.
(254) أخرجه أحمد في مسنده «455/6» من حديث أسماء بنت يزيد وتقدم.
(255) صحيح، أخرجه مسلم برقم: (5236).

ومن أحاديث الفزع، حديث الفزع من التُّرك، ما رواه الأمام أحمد بن حنبل في مسنده عن بريده قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «إن أمتي ليسوقها قوم عراض الوجه صغار الأعين كأن وجههم الجحف ثلاث مرات حتى يلحقوا بجزيرة العرب، أما السياقة الأولى فينجوا من هرب منهم قال: وكان بريدة لا يفارقه بعيران أو ثلاثة ومتاع السفر والأسقية بعد ذلك للهرب مما سمع من رسول الله ﷺ من البلاء من التُّرك» (257).

وفي التوازنات بين الطمأنة والتحذير أيضا حديث النبي ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم وحنا جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ، قيل: قلنا: يا رسول الله ما نقول يومئذ؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل وعليه توكلنا» (258).

والآن وبعد تحقيق الفهم واليقين يأتي الأمر الثالث والخطير وهو قواعد إسقاط العلامة على الواقع.

إسقاط العلامة على الواقع

العلامة معلومة لنا بالخبر في واقع لم يتحقق، والواقع معلوم لنا بمشاهدة ما هو متحقق، والخلل في التوازن بين العلامة والواقع يأتي بمراعاة أحدهما على حساب الآخر.

وتجاوز هذا الخلل يتحقق بإحكام إسقاط العلامة على الواقع، ومن هذا الإحكام: الحذر من التقييم المادي للعلامة، ولنضرب لذلك مثالا: فمن علامات ظهور الدجال: جفاف بحيرة طبرية، فإذا نظرنا إلى بحيرة طبرية الآن وجدنها تكاد تجف، فإذا نظرنا لتلك العلامة نظرة مادية، وقسنا الباقي من الزمن اللازم لجفاف البحيرة، واعتبرناه هو الزمن الباقي لظهور الدجال، واستنتجنا أن الدجال على وشك الظهور بهذا الاعتبار، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ، لأن الباقي من البحيرة هو المانع من تحقيق علامة الجفاف،

---

(257) أخرجه أحمد في مسنده «5/ 348» وأبو داود في (الفتن) باب: في قتال الترك «4/ 110 / ح 4305» من حديث بريدة عن أبه رضي الله عنه.

(258) أخرجه أحمد في مسنده «4/374» من حديث زيد بن أرقم، وأخرجه أحمد في (مسنده) «3 / 7» والترمذي في (الفتن) / باب: ما جاء في شأن الصور «4 / 620 / ح 2431» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وهو أمر قدري غير مرهون بالمعدل الزمني الذي بدأ فيه جفاف البحيرة، بل قد تمتلئ البحيرة بعد أن تكاد تجف.

ومن ناحية أخرى فإن الحديث نص على أن علامة ظهور الدجال هو جفاف بحيرة طبرية، ولم يدل النص على أن مجرد جفاف بحيرة طبرية سيتبعه ظهور الدجال، ولكن دل على أن الدجال سيظهر وقد جفت بحيرة طبرية، وبذلك لم يتحدد وقت جفاف البحيرة، ووقت ما بعد جفاف البحيرة الذي يظهر فيه الدجال.

وأخطر علامة تختل فيها أحكام إسقاط العلامات على الواقع «علامة المهدي»، والسبب في ذلك هو كثرة توافر الشروط الشخصية المحددة في صفاته، مثل: «أجلى الجبهة وأقنى الأنف»، ومثل الرؤى التي يراها الناس لأحد الأشخاص توافق الاسم، أو امتلاء جوراً.

مما يجعل أهم أحكام إسقاط العلامات على الواقع هو رد العلامة إلى الُمحكَم من شروطها، فمن شروط علامة المهدي أي يخسف جيش ينبعث له في بيداء المدينة، وهو أمر يستحيل حدوثه بصورة عارضة، ويستحيل خفاؤه، ويستحيل تأويله أو خفاء معناه.

ومن هذه الأحكام التوازن في توقُّع حدوث العلامة، فإن تحقُّق اليقين ينشأ معه توقع زائد للحدوث، بحيث يصبح هذا التوقع الزائد مشكلة في ذاتها، ولقد عبرت الأحاديث عن هذه المشكلة بصورة كاملة، منها حديث جابر قال: «هاجمت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجير: ألا يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، فقام وكان متكئاً فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة» (259).

---

(259) أخرجه مسلم في (الفتن) «9 / 251».

الباب الرابع

التصور المنهجي القرآني

الأساس القرآني العام للعلامات

ولما كان القرآن كتاب الإيمان أي ليؤمن الناس، كان لابد أن يكون للعلامات باعتبارها أفعال الله ليؤمن الناس أيضاً أن يكون لها حيز ومساحة في هذا الكتاب، وكان من الضروري أن يكون لأهمية قضية العلامات تصور قرآني واسع ولكننا فهمنا أن التصور القرآني للعلامات لم يتجاوز حدود التطورات الكونية الأخيرة والتي تحددت كالمقدمة بين يدي الساعة، مثل السماء والأرض والنجوم والجبال والشمس والقمر، وكانت هذه المحدودية ضمن ما فهمنا من أخطاء.

والدليل على ذلك هو المساحة القرآنية العظيمة التي ناقشت بصورة رائعة علامة الدجال ويأجوج ومأجوج وعيسى والدابة ابتداءً، ثم تبعها التطورات الكونية الأخيرة.

ولعل اكتشاف هذه المساحة يعود إلى علم المناسبة: «علم مناسبة الآية بالآية» حيث أنشأت هذه المناسبة في هذا العلم موضوعية كاملة لكل العلامات المذكورة، والسابقة علي التطورات الكونية المشهورة، ولعل الخطأ في فهم العلامات في القرآن كان راجعاً إلى التوقع الخاطئ بأن تملأ ألفاظ الدجال ويأجوج ومأجوج والدابة، آيات القرآن، ولكن الدخول في التصور القرآني للعلامات سيكون هو الحكم علي ادعاء المساحة الواسعة والأهمية العظمى للعلامات في القرآن، كما أنه سيكون الدليل علي الفهم الخاطئ الذي ظل يبحث به أصحابه عن ألفاظ بحروفها ولم يجدوها.
وقبل طرح التصور هناك كلمة مهمة، وهي أن استقصاء التصور أكبر من الطرح السريع للقضية في هذا الكتاب، لذا سنعطي مؤشراً لأبعاد القضية، من خلال أمثلة من سور كاملة، مثل: سورة الدخان وعلاقتها بالدجال، وسورة الأنبياء وعلاقتها بيأجوج ومأجوج، وسورة النمل وعلاقتها بالدابة، وسورة التوبة وعلاقتها بالشمس.

أولا: سورة الدخان والدجال

(حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الدخان:1-2).

لما كانت مقدمات ابن كثير للسور تحمل مضمونها العام ومعناها الجوهري كانت المناسبة بين الدجال وسورة الدخان هي مقدمة ابن كثير للسورة.

إن هذا الكتاب المبين هو المواجهة الكاملة والحرز التام والعصمة النهائية من الدجال، ومن هنا تبدأ أول مناسبة بين اختصاص أُبَيّ بن كعب، رضي الله عنه، بالذهاب مع رسول الله إلى ابن صياد ليستطلع أمره، حيث أن أُبَيّ بن كعب كان من كتاب الوحي، وصفة «المبين» هي التي بها تكون الإبانة والوضوح والشهادة، ليكون الحسم واليقين والاستقامة في قضايا الغيب، وخصوصا قضية الدجال التي تحتوي الغموض في ذاتها وفي كل جوانبها عن قصد إلهي يلائم موضوعها وهو الفتنة، فالعلاقة بين الدجال وابن صياد لم تحسم بنص صريح، حيث اكتفى النبي ﷺ بقوله لعمر: «إن يكن هو فلن تسلط عليه»، كما أن إخبار النبي ﷺ عن مكان وجوده لم يكن يخلو من مثل ذلك، حيث قال: «ألا أخبركم بأنه في بحر الشام؟» ثم أغمي عليه ساعة، ثم سري عنه، ثم قال: «بل هو في بحر اليمن»، ثم أغمي عليه ساعة، ثم سري عنه، فقال: «هو في بحر العراق» ثلاثا، وكذلك إخباره ﷺ عن مكان خروجه لم يكن يخلو من مثل ذلك، حيث قال: «يخرج الدجال من ها هنا، أو ها هنا، أو من هاهنا بل يخرج هاهنا -يعني المشرق» [(260)].

ومن هذه الأحاديث تكون مناسبة وصف القرآن بأنه كتاب مبين، وهكذا يأتي ذكر ليلة القدر والدجال في سياق واحد في هذا الحديث، لتتأكد مناسبة السورة مع قضية الدجال، من خلال قوله تعالى:﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾(الدخان:3)، ومن خلال كلمة «اخْسَأْ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْبِقَ الْقَدَرَ» الواردة في الحديث، ليتأكد أن تقدير الله عز وجل وبصفة أساسية من خلال قضية الدجال، هو موضوع السورة، وليدل على أن أساس التعامل مع فتنة الدجال هو التسليم التام بقدر الله عز وجل.

---

(260) أخرجه الحاكم في المستدرك «ج 20 / ص 13 – 8755».

ومن هنا تعددت الروايات التي تناقش هذه العلاقة بين الدجال والقدر، فعَنْ ابن عمر أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَال لابْنِ صَيَّادٍ: «ماذا ترى، قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال له النبي ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئا، فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال: اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله» (261).

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: «إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، فمن مرض منهم فلا تعودوه، ومن مات منهم فلا تشهدوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله عز وجل أن يلحقهم به» (262).

قال الإمام ابن الأثير في «النهاية في غريب الأثر»: إنما جَعَلَهم ـ أي القدرية ـ مَجُوساً لِمُضاهاة مَذْهَبهم مذهبَ المَجوس في قولهم بالأصْلَين وهما النور والظُّلْمة، يَزْعُمون أنَّ الخير من فِعْل النور، والشرَّ من فعِل الظُّلْمة، وكذا القَدَرِية يُضِيفون الخير إلى الله، والشرَّ إلى الإنسان والشيطانِ، والله تعالى خالِقُهما معاً، ولا يكون شيءٌ منهما إلاَّ بمَشِيئتِه، فهما مضافان إليه خَلْقاً وإيجاداً، وإلى الفاعِلين لهما عَمَلاً واكْتِسابا».

ومن العلاقة بين القَدَر والدجال كانت المناسبة بينه وبين ليلة القدْر، حيث جمع رسول الله ﷺ بينهما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «خرجت إليكم وقد تبينت ليلة القدر ومسيح الضلالة، فكان يلوح بين رجلين بسدة المسجد فأتيتهما لأحجز بينهما فأنسيتهما، وأما ليلة القدر فالتمسوها في العشر الأواخر وتراً، وأما مسيح الضلالة فإنه أعور العين، أجلى الجبهة، عريض النحر، فيه دفا، كأنه قطن بن عبد العزى» قال: يا رسول الله هل يضرني شبهه؟ قال: «لا، أنت امرؤ مسلم وهو رجل كافر».

---

(261) أخرجه البخاري، (6158).
(262) أخرجه أبو داود، والبيهقي في السنن الكبرى «ج 10 / ص 203».

ويكون تعبير رسول الله ﷺ في حديثه عن ليلة القدر والدجال مناسبا لمعنى التبيين، حيث قال: «وقد تبينت ليلة القدر ومسيح الضلالة» (263)، وقد أكد النبي ﷺ علة نسيانه بيان ليلة القدر والدجال بسبب الملاحاة بين رجلين، ذلك لأن الملاحاة من جنس الحال الذي سيكون عليه الناس عند ظهور الدجال، كما أكدته عدة روايات، منها ما رواه أبو هريرة قال: أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، حدثنا رسول الله أبو القاسم الصادق المصدوق: «إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قبل المشرق، في زمان اختلاف من الناس وفرقة» (264).

وعن الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خبأ لابن صائد دخاناً سأله عما خبأ له فقال: دخ فقال: «اخسأ فلن تعدو أجلك»، فلما ولى رسول الله ﷺ قال القوم: ماذا قال؟ قال بعضهم: دخ، وقال بعضهم: بل زخ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا وأنتم معي تختلفون، فأنتم بعدي أشد اختلافا» (265).

وجاء ذكر ليلة القدر بهذه الصفة: «الليلة المباركة»، ليمثل المعنى الأول للتقابل مع الدجال، لأن البركة تمام الخير والنعم، والدجال شر وجدب، وفقر وجوع، وخوف ورعب، والبركة نفع، والدجال لا نفع فيه» (266).

فذكر الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ضرورة عقَدِية لتصور أعمال الدجال تصوراً صحيحاً، والإبانة والاستقامة الموصوف بهما الكتاب، أي القرآن، والواردتان في آية الدخان: (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الدخان:2) وآية الكهف: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ) (الكهف:1)، تتطلبان في مواجهة الدجال إثبات المقتضى الواقعي لهما، وهو الفرقان في الواقع بالرسالة، والنبوة التي يتحقق بها هذا الفرقان في حياة الناس، مثلما كان الفرقان في القدر الإلهي المحكم.

---

(263) مجمع الزوائد للهيثمي.

(264) رواه ابن حبان ج 15 ص 223، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

(265) مجمع الزوائد للهيثمي.

(266) وهو الوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ الدجال حين قال عنه: «يَمْكُثُ أَبَوَا الدَّجَّالِ ثَلاَثِينَ عَاماً لاَ يُولَدُ لَهُمَا ثُمَّ يُولَدُ لَهُمَا غُلاَمٌ أَعْوَرُ أَضَرُّ شَيْءٍ وَأَقَلُّهُ نَفْعاً تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ» رواه أحمد برقم: (20013).

ولقد كان ارتباط الدجال بالدخان جانبا أساسيا للمقارنة بين الدجال وليلة القدر، وهي صفة الليلة المقابلة للدخان.

فمن أهم جوانب التقابل بين ليلة القدر والدخان: وصف النبي ﷺ لصفاتها الكونية المقابلة تماماً للدخان بمثل قوله: «إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة، كأن فيها قمرًا ساطعًا، ساكنة سجية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمَى به فيها حتى تصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ»[267]، وقال: «لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ يُصْبِحُ شَمْسُهَا صَبِيحَتَهَا ضَعِيفَةً حَمْرَاءَ»[268]، وقال: «... وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ الشَّمْسَ تُصْبِحُ الْغَدَ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَرَقْرَقُ لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ »[269].

ولما كان الفرقان يتنافى مع الدجال وأفعاله، كان من مقتضيات الرسالة وواجب كل رسول أن ينذر أمته من هذه العلامة، لأن هذا الإنذار أهم مقتضيات ذلك الفرقان: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان:3)، وقد تحقق معنى الإنذار الإلهي في قضية الدجال مع علامات الساعة الأساسية، كما قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة والثالثة الدجال»[270]، وقال ﷺ أيضاً: «ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرّ»[271].

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) (الدخان:4).
يقول الإمام ابن كثير: «وقوله: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) أي في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها» [272].

---

(267) مسند أحمد بن حنبل (22153).
(268) مسند أبي داود (2793).
(269) سند أحمد بن حنبل (20692)
(270) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
(271) شرح السنة للبغوي
(272) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

ومن الضروري إثبات أن الآجال والأرزاق من أمر الله المحكم، لأنه ستكون للدجال فتنة في هذا الأمر، كما أن أفعال الدجال من حيث الإحياء والإماتة ومن حيث الرزق والذهب وجبال الخبز وسمن مواشي من يفتن به، وجوع من يكفر به، تتطلب حسما إيمانياً في قضية الأجل والرزق.

ومن الضروري كذلك إثبات أن قدر الله يكون كل عام في ليلة القدر، لأن هذه الحقيقة هي التي تثبت أن بقاء الدجال إلى آخر الزمان سيكون محكوماً بقدر الله، وأن كل عام يعيشه الدجال حتى ظهوره في آخر الزمان محكوم بقدر الله سبحانه، وأن بقاء الدجال حتى هذا الوقت لا يخرجه عن تقدير الله وإحكامه.

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: قَوْله: «فَلَنْ تَعْدُو قَدْرك» أَيْ لَنْ تُجَاوِز مَا قَدَّرَ اللَّه فِيك أَوْ مِقْدَار أَمْثَالك مِنْ الْكُهَّان» [273]، وعن هشام بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من خلق الدجال» [274].

و كلمة «يفرق» الواردة في الآية معناها يقدر ولكن جاء بلفظ يفرق الذي يثبت الفرق بين الأمر الحكيم وبين أفعال الدجال، وكلمة: «حكيم» أي محكم لا يبدل ولا يغير, ولهذا قال جل جلاله «أمراً من عندنا» أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه وكلمة «حكيم» هنا لها مناسبة مع الدجال لأن أعمال الدجال قد تبدو خارج معنى الإحكام، مثل أن تكون ناره جنة، وجنته نار، ومثل تمثل الشياطين في صورة الآباء، فكل أعمال الدجال، في أمر الله المحكم لا تخرج عن معنى الفتنة، فكان لابد من إثبات أن الإحياء والإماتة على وجه الحقيقة هي لله، وإن كان الدجال سيقتل رجلاً ثم يحييه، فإنما سيكون ذلك بأمر الله، فتنة وابتلاءً.

---

(273) فتح الباري شرح صحيح البخاري.
(274) صحيح مسلم.

ولابد أن نؤمن بالإحكام في أقدار الله؛ حتى لا نتساءل عن الأجل المكتوب فيمن يميته الدجال ثم يحييه، فالله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

(أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (الدخان:5).

ويتمم معنى كلمة «يُفْرَقُ» وكلمة «حَكِيمٍ» كلمة «أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا»، فكما عالجت الآية السابقة أمر الفرقان والإحكام، تعالج هذه الآية أمرا آخر وهو أن أعمال الدجال بكل ما يوهم فيها بأن الدجال يملك أمورا ليست للبشر، لا تخرج عن قدر الله، مما يتطلب الإيمان بأن ذلك من أمر الله، ومن عند الله، ومن هنا كان قول الله في الآية: «أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا».

﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

والرسالة هي المواجهة الكاملة مع الدجال، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم» [275]، ولكن الفرقان والإحكام في أمر الله يقتضي ألا يُترك الناس لهذه الفتنة، فكان لابد من إرسال المرسلين.

فالرسالة والنبوة هي التي تحقق في حياة الناس الفرقان، ولما كان الفرقان يتنافى مع الدجال وأفعاله، كان من واجب الرسالة أن يحذر كل رسول أمته من هذه العلامة، ليكون هذا التحذير أهم مقتضيات هذا الفرقان.

كما قال النبي ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك ف ر» [276].

ومن هنا كان التبيين الكامل من الرسول ﷺ لوصف الدجال من البداية حتى يقتله عيسى ابن مريم، بتفصيل لم يكن في أي قضية أخرى، مثل تفصيله في وصف الفوارس التي ستستطلع أمر الدجال بعد الملحمة، حيث يصفهم

---

(275) مجمع الزوائد للهيثمي.
(276) صحيح مسلم رقم 2933

النبي ﷺ قائلا: «««إني لأعرف أسمائهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ» [277]، ومثل صفة الشاب الذي سيقتله الدجال ثم يعجز عن موته مرة أخرى، ومثل كيفية قتل عيسى للدجال، ومكان قتله، وأداة قتله، وكيفية قتله.

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الدخان:6).

ولم يقل هو «الغفور الرحيم»، مع أن التعقيب إنما جاء على ذكر الرحمة الربانية، وذلك لدلالة اسم «السميع العليم» على الجانب الغيبي في موضوع الرحمة، وهو قضية الدجال الغيبية، فالإنذار رحمة من الله لأنه نجاة من الفتنة، ولكنه رحمة من﴿ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾المحيط بغيب الدجال، وهو سبحانه القادر وحده على إنزال الكتاب المبين، القادر وحده على تحقيق الفرقان، كما قال النبي ﷺ: «ما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال وأنا أزيدكم فيه تحذيراً» [278].

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) (الدخان:7).

والإيمان برب السماوات والأرض هو أهم حقائق الاعتقاد التي تبرز أمام أعمال الدجال؛ لأن حركة الدجال وآثاره في الوجود الكوني لا تخرج عن حقيقة الربوبية الكاملة الشاملة لله عز وجل في السماوات والأرض، حيث ستكون أعمال الدجال ذات آثار خطيرة في السماوات والأرض، مثل أمره للسماء بالمطر فتمطر، ومتابعة كنوز الذهب له كيعاسيب النحل، وأن يكون معه جبال خبز، وجنة ونارا.

ومن هنا كان تعظيم اليهود للدجال وآثاره الكونية، ومواجهة هذا التعظيم كما ورد في تفسير قول الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر:56-57).

---

(277) صحيح مسلم رقم 2899
(278) صحيح الجامع.

روى الإمام ابن أبي حاتم عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الدَّجَّالَ يَكُونَ مِنَّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ فَعَظَّمُوا أَمْرَهُ، وَقَالُوا: يَصْنَعُ كَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ»، قَالَ: «لا يَبْلُغُ الَّذِي يَقُولُ»: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ»، فَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ»: الدَّجَّالِ»، وعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ»، قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ نَزَلَتْ فِيهِمْ فِيمَا يَنْتَظِرُونَهُ مِنْ أَمْرِ الدَّجَّالِ»[279].

قال أهل التفسير [280]: نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: «إن صاحبنا المسيح بن داوود -يعنون الدجال-يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه في البر والبحر، وفي رواية: «فيخوض البحر، وتجري معه الأنهار»، ويرد الملك إلينا، قال الله تعالى: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» من فتنة الدجال، «إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير»، قال الكلبي ومقاتل: «لَخَلْقُ السماوات والأرض» أعظم من خلق الدجال.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) (الدخان:7).

ومناسبة اليقين هنا لا تفهم إلا بحادثة قتل الدجال للشاب، ومن هنا وصف الرسول ﷺ شهادة هذا الشاب الذي سيقتله الدجال بأنها أعظم شهادة عند رب العالمين، لأن الله عز وجل قد جعل عجز الدجال عن قتل الشاب مرة دليلاً على معنى الفتنة في إحياء الدجال للميت، كما جاء في الحديث: «يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح، مسالح الدجال، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، قال فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدا دونه، قال فينطلقون به

(279) تفسير ابن أبي حاتم والدر المنثور وفتح القدير.
(280) تفسير القرطبي (ج 15 / ص 284) تفسير البغوي (ج 7 / ص 153) فتح القدير (ج 6 / ص 334)، بحر العلوم للسمرقندي (ج 4 / ص 62) الدر المنثور)ج 9 / ص 11.(

إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال فيأمر الدجال به فيشبح، فيقول: خذوه وشجوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربا، قال فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائما، قال ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلا، قال فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين» [281].

أعظم الناس شهادة: لأن يقينه كان كاملا، ولأنه واجه الدجال في قمة سلطانه كما يواجه الرجل أي صاحب سلطة، ليكون إذا قتله سيداً للشهداء، ولأنه آمن بقول الرسول ﷺ في الدجال حتى آخر الزمان، ولم يباعد الزمان بينه وبين اليقين بالنص، وبقول رسول الله ﷺ أن الدجال لن يمكن منه مرة أخرى، ولأنه بعد القتل والإحياء ما ازداد إلا بصيرة، ولأنه أعلن على الناس هذا اليقين ليؤمنوا مثلما آمن، أما قدرة الله عز وجل فهي القدرة الدائمة.

(لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) (الدخان:8).

إن الآية التي تثبت لله عز وجل القدرة على الإحياء والإماتة بإطلاق إنما تحدد فارقاً جوهرياً بين قدرة الله وفتنة الدجال في هذا الأمر.
لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، ليس أحد سواه، لا يُحْيِي الدجال ولا يُمِيتُ على وجه الحقيقة، بل على وجه الفتنة، وكما كانت لقول الله (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) دلالة في مواجهة فتنة الدجال، كذلك يكون لقول الله: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)، وهذه الدلالة يفسرها قول رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَعْرَابِيٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ فَيَقُولُ نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولَانِ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ» [282].

---

(281) صحيح مسلم الرقم 2938
(282) صحيح الجامع (7875).

فربوبية الله عز وجل لهؤلاء الناس ولآبائهم الأولين هي التي تحقق الاطمئنان على المصير وليس الشياطين المتمثلين في صورة الآباء، وإن خرج علينا من يقول وهو في صورة هؤلاء الآباء: «الدجال ربكم»، نقول له: الله ربنا ورب آبائنا الأولين، حتى لو تمثلت الشياطين وأتباع الدجال في صورة آبائنا الأولين.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) (الدخان:9).

ومع كل موجبات اليقين والحذر وكل أسبابه اللازمة لمواجهة الفتنة: «هم في شك» ومع خطورة الأمر وعظم القضية: «هم يلعبون» وهذا هو المدخل إلى الفتنة: الشك واللعب، أما الشك فعلاقته بالفتنة يفسرها قول الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران:7)، حيث فسر الزيغ بالشك الذي تكون به الفتنة، ويذكر رسول الله ﷺ الدجال باعتباره أخطر ما يمكن أن يواجه البشر: «ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو الدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرّ»[283]، ومع ذلك هم: «يلعبون» ويبين النبي ﷺ أنه: «ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال» وهم: «يلعبون».

وعندما يكون الشك تكون الفتنة، ومواجهتها تكون باليقين كما كانت من الشاب الذي سيقتله الدجال، يقتله بمنشار يشقه نصفين، يمر بينهما، يدعوه فيقوم، ويقول: له أنا ربك، فيقول: أنت الدجال ما ازددت فيك إلا بصيرة، اليقين أو الفتنة، ولا ثالث لهما!

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) (الدخان:10-12).

---

(283) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (7994).

والروايات الواردة في تفسير الآية تدور حول معنيين، الأول: الدخان الذي أصاب قريش بعد دعوة رسول الله عليهم[284]، والثاني: الدخان الذي سيكون في آخر الزمان.

ولكل من التفسيرين علاقة بالدجال، ذلك أن الجدب والجوع والعذاب بشكل عام إنما مقصد الدجال منه هو نقيض مقصد الله عز وجل، فمقصد الله سبحانه من العذاب هو إلجاء عباده إلى التضرع إليه والإيمان به، وليس كما يفعل الدجال حين يجعل من لا يؤمن به، وقدر الله في عذاب الناس يبدأ بحرمانهم من نعمة التذكر والتدبر بعد أن جاءهم الرسول المبين:

﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾(الدخان:13).

ثم لا يكون العذاب إلا بعد وقوع أشد موجباته وهو هنا التولي عن الرسول المبين واتهامه بأنه معلم مجنون:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾(الدخان:14).

ومع ذلك يكشف الله عنهم العذاب وهو سبحانه يعلم أنهم عائدون إلى الكفر فكشف الله عنهم العذاب قليلا حتى تكون البطشة الكبرى.

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾(الدخان:15).

وهذه الآية تظهر حقيقة هامة من حقائق التقدير الإلهي وهي الإحكام الذي يبلغ كشف العذاب مع علم الله بأنهم عائدون وأن كشف العذاب «قليلا»، وهي تفيد معنى التقدير الزمني المحكم الذي يمتد لتكون البطشة الكبرى في

---

(284) إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ فأتي رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا فنزلت «إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون» .

يوم مقدر.

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾(الدخان:16).

والبطشة الكبرى بإجماع المفسرين هي غزوة بدر، والمناسبة بين الدجال وغزوة بدر هي المناسبة بين البداية والنهاية، لأن بداية القتال هي بدر، ونهايته هي قتال الدجال، كما قال رسول الله ﷺ: «حتى يقاتل آخرهم الدجال».

والربط بين الدجال وغزوة بدر ربط قرآني ورد في مواضع متعددة منها سورة القمر وسورة غافر، ففي سورة القمر جاء في تفسير قوله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) (القمر:45-46)، أن قتادة رضي الله عنه ذكر أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هُزِمُوا وَوَلُّوا الدُّبُر»[285] وهو تفسير (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)هذا عن بدر، ثم جاء بعدها: (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ)، حيث جاء ذكر الدجال مع ذكر الساعة بصفتها الواردة في الآية ضمن ما ينتظره الناس من أهوال الغيب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرّ» [286].
وفي سورة غافر تتضح العلاقة بين الدجال وغزوة بدر من خلال ما ورد عن مقاتل في تفسيره: (فَاصبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) (غافر:55).

في العذاب أنه نازل بهم القتل ببدر، وضرب الملائكة الوجوه والأدبار، وتعجيل أرواحهم إلى النار، فهذا العذاب (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (غافر:55)، يعنى وصَلِّ بأمر ربك بالغداة، يعني

(285) أخرجه ابن المبارك في الزهد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه.
(286) البغوي شرح السنة.

صلاة الغداة، وصلاة العصر.

ثم جاء قول الله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (غافر:56).

وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان وله سلطان، يعنون الدجال، ماء البحر إلى ركبته، والسحاب فوق رأسه، مبالغة يهودية في الدجال، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ) يعنى يمارون في آيات الله، لأن الدجال آية من آيات الله عز وجل (بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ) يعنى بغير حجة أتتهم من الله، إضمار بأن الدجال كما يقولون، يقول الله عز وجل: (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ) يقول: ما في قلوبهم إلا كِبْرٌ (مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) إلى ذلك الكبر لقولهم: إن الدجال يملك الأرض (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) يا محمد من فتنة الدجال (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، ثم قال: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يعنى بالناس في هذا الموضع: الدجال وحده، يقول: خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، يقول: هما أعظم خلقاً من خلق الدجال (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يعني اليهود.

إن الدجال يدخل على الناس لفتنتهم في الدنيا بتمثل الشياطين لهم في صورة آبائهم الذين في عالم الغيب وهو من قبيل السحر في الأعين.

والفصل بين الغيب والشهادة هو الأساس القدري الكوني الذي جعله الله بين الدنيا والآخرة، والاستثناء من هذه القاعدة لا يكون إلا بمعجزة محدودة مثلما كان من رسول الله ﷺ في غزوة بدر: «فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد رحلها، ثم مشي واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل ينادي بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد جيفوا: «يا أبا جهل ابن هشام ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة»، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قال: فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، وهل يسمعون؟ بقول

الله عز وجل: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) (النمل:80) فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم والله إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم لهو الحق» وفي رواية: «إنهم الآن ليسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علِيَّ شيئاً» (287).

ويظهر الاستثناء المحدود من أمرين: الأول: أن ذلك لا يكون إلا للرسول ﷺ، والثاني: أنهم لا يستطيعون الرد عليه، ولذلك قال قتادة: أحياهم الله «له» حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً، ونقمة، وحسرة وندما».

فيتقابل الوعد الحق من الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ، مقابل الوعد الباطل الكاذب من الدجال في صورة الشياطين بأن يموتوا على غير الإسلام كما في الحديث.

وكل ما سبق من الآيات يعالج قضية القدر، ويتمم هذه المعالجة قضية فرعون، لتكون هذه المعالجة هي مناسبة الآية: (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) (الدخان:17)، لأن هذه القضية هي المثل المضروب للقدر الذي تعالجه الآيات، ومن هنا جاء قول ابن عباس عن الضحاك بن عثمان، قال: «وافيت الموسم، فلقيت جماعة في مسجد الخيف، ذكرهم، قال: ورأيت طاووسا اليماني فسمعته يقول لرجل: «إن القدر سر الله فلا تدخلن فيه»، ولقد سمعت أبا الدرداء يحدث عن نبيكم ﷺ، أن موسى عليه السلام لما خرج من عند فرعون متغير الوجه، استقبله ملك من خُزَّان النار وهو يقلب كفيه متعجبا لما قال له الروح الأمين: إن ربك أرسلك إلى فرعون مع أنه قد طبع على قلبه فلن يؤمن، قال: يا جبريل فدعائي ما هو؟ قال: امض لما أمرت، قال: صدقت، ثم قال: يا موسى نحن اثنا عشر ملكا من خزان النار، قد جهدنا على أن نسأل في هذا الأمر فأوحي إلينا أن القدر سر الله تبارك وتعالى، فلا تدخلوا فيه»(288)، وفي رواية الترمذي: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمٍ قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ فِي الْقَدَرِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ: نَعَمْ،

---

(287) مجموع ألفاظه عند البخاري ومسلم وأحمد.
(288) الإبانة الكبرى لابن بطة (ج 5 / ص 55).

قَالَ: فَاقْرَأْ الزُّخْرُفَ، قَالَ فَقَرَأْتُ: (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الزُّخرُف:1-4)، فَقَالَ أَتَدْرِي مَا أُمُّ الْكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ))»، قَالَ عَطَاءٌ: «فَلَقِيتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي يَا بُنَيَّ اتَّقِ اللَّهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» (289).

ومن هنا جمع الثعالبي في تفسيره بين فرعون والدجال في قضية القدر فقال في قوله تعالى(طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (القصص:1-3) فقال: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (القصص:4)، «خوف خراب ملكه على ما أخبرته كهنته، أو لأجل رؤيا رآها قاله السدي، وطمع بجهله أن يرد القدر، وأين هذا المنزع من قول النبي ﷺ لعمر: إن يكنه فلن تسلط عليه وان لم يكنه فلا خير لك في قتله -يعني ابن صياد- إذ خاف عمر أن يكون هو الدجال»(290).

فيكون موقف فرعون الخاطئ من القدر «طمع بجهله أن يرد القدر» نموذجا يقابله موقف الرسول ﷺ الصحيح «إن يكنه فلن تسلط عليه».

وتتواصل المناسبة من خلال السياق الذي ذُكر فيه فرعون: (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) (الدخان:18)، يطلب رد بني إسرائيل إليه، فالإنسان أمانة، وهو يطلب أداء الأمانة إليه (291).

---

(289) سنن أبي داوود برقم: (4081).
(290) تفسير الثعالبي.
(291) تفسير الطبري للآية.

عن مجاهد، قوله: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ» قال: أرسلوا معي بني إسرائيل [292]، وعن قتادة «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ» يعني به بني إسرائيل، قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم، قوما أحرارا اتخذتهم عبيدا، خلّ سبيلهم. قال ابن زيد في قوله: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ» قال: يقول: أرسل عباد الله معي، يعني بني إسرائيل، وقرأ «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ» قال: ذلك قوله: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ» قال: ردّهم إلينا.

وقوله (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) يقول: إني لكم أيها القوم رسول من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كفركم به، (أَمِينٌ): على وحيه ورسالته التي أوعدنيها إليكم.

ومن هنا يربط رسول الله ﷺ بين الأمانة والشعوب فيقول: «إن أمام الدجال سنين خداعة يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الفويسق يتكلم في أمر العامة» [293]، فتأكد التماثل بين فرعون والدجال بين الخونة المؤتمنين مثل فرعون، وبين الأمين الحقيقي مثل موسى.

ولم يكن ائتمان فرعون وتخوين موسى هو الأمر الوحيد في واقع فرعون، فلقد كان واقع فرعون في تناقضه إجمالاً أقرب شَبَهاً بواقع الدجال حتى قال فرعون في موسى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (غافر:26)، وقال (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (غافر:29)، موسى (يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) وفرعون لا يهدي (مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)!!.

وتتواصل المناسبة من خلال السياق الذي ذكر فيه فرعون: (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (الدخان:19)، والعلو هنا هو المناسبة

---

(292) المصدر السابق.
(293) السلسلة الصحيحة للألباني.

بين فرعون والدجال؛ لأن معنى الدخان هو العلو بالشر وقد ثبت هذا الوصف على فرعون والدجال، ومن هنا كان من معاني الدخان كما جاء في لسان العرب: «الدخان: موضع الشرّ إذا علا فيقولون: كان بيننا أَمر ارْتفَعَ له دخان»[294]، ولما كان من الضروري التفريق بين آيات الله وأفعال الدجال كان من وصف آيات الله بأنها سلطان مبين ليتبين الفرق بين أفعال الدجال القائمة على الفتنة والخداع والسحر وأفعال الله الحقيقية القوية الواضحة الهادية وهو معني السلطان المبين.

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ) (الدخان:20).

هذه الآية تحتمل معنيين، الأول: أن يكون معناها الدعاء، أي يقصد بها المضارع والمستقبل، وتقديره: أعوذ بالله أن ترجموني أي تقتلوني، والثاني: أن يكون معناها الخبر، أي أن موسى سبق أن توقع منهم القتل فدعا ربه(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)(القصص:33)، فأجابه الله بقوله: (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) (القصص:35)، فهو يخبرهم بأن الله سيعصمه منهم، ويتحداهم أن يصلوا إليه إيماناً بوعد ربه وثقة به، ولذلك نصحهم بقوله:(وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ) (الدخان:21)، أي إن لم تؤمنوا بي فاتركوني أخرج من أرضكم أنا وقومي، ولا تحاولوا قتلي، لأنكم لن تستطيعوا ذلك.

ولذلك أيضاً كان ردُّه على قومه حين قالوا لما تبعهم فرعون بجنوده: (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) (الشعراء:62)، ويؤكد ذلك ما قاله الإمام البقاعي في «نظم الدرر»: «(وإني عذت)أي اعتصمت وامتنعت (بربي)الذي رباني على ما اقتضاه لطفه بي وإحسانه إليّ، (وربكم)الذي أعاذني من قتلكم لي بكم على ما دعت إليه حكمته من جبروتكم وتكبركم وقوة مكنتكم (أن ترجمون)أي أن يتجدد في وقت من الأوقات قتل منكم لي،

(294) لسان العرب لابن منظور.

ما أتيتكم حتى توثقت من ربي في ذلك، فإني قلت (إني أخاف أن يقتلون) (القصص:33)، فقال: (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا) (القصص:35)، من أعظم آياتي أن لا تصلوا على قوتكم وكثرتكم إلى قتلي منع أنه لا قوة لي بغير الله الذي أرسلني.

ولما كان التقدير: فإن آمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم، عطف عليه قوله: (وإن لم تؤمنوا لي) أي تصدقوا لأجلي ما أخبرتكم به (فاعتزلون) أي وإن لم تعتزلوني هلكتم، ولا تقدرون على قتلي بوجه وأنا واحد ممن تسومونهم سوء العذاب، وما قتلتم أبناءهم إلا من أجلي، فرباني على كف من ضاقت عليه الأرض بسببي وسفك الدماء في شأني، ومنعه الله من أن يصل إليّ منه سوء قبل أن أعوذ به، فكيف به بعد أن أرسلني وعذت به فأعاذني، واستجرت به فأجارني»[295]، وبمثل هذا اليقين الذي واجه به موسى فرعون، سيواجه ذلك الشاب المؤمن الدجال في آخر الزمان.
وأخيراً ينطلق موسى بالحكم عليهم: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ) (الدخان:22).
ويصدق الله على حكم موسى ويستجيب له بعد أن دعا عليهم، هكذا يكون التعامل بين الله والعباد، لا يكون الحكم إلا بعد الرسالة والبيان والحجة، وهذه الحقيقة هي التي تصلح في الواقع بداية للمقارنة بين أفعال الله عز وجل وأفعال الدجال.

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) (الدخان:23).
«مُّتَّبَعُونَ»، دليل على إحاطة الله بالأحداث.

(وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ) (الدخان:24).
وهنا نجد أنفسنا أمام فعل من أفعال الله عز وجل، أن يصل موسى إلى البحر، فيأمره ربه أن يضرب بعصاه البحر فينشق، آية حقيقية ليست سحراً مثلما فعل السحرة (قَالَ أَلْقُواۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) (الأعراف:116).

---

(295) البقاعي، نظم الدرر، تفسير الآية.

ولكنه كان انشقاقاً فعلياً للبحر حتى قال سبحانه وتعالى: (رَهْواً) أي ساكناً، وهذه الحادثة تكشف حقيقة هائلة من حقائق التقدير الإلهي، وهي الفعل الواحد والسبب الواحد مع تعدد النتائج، وهي قاعدة قرآنية في إثبات مطلق المشيئة الإلهية، ينشق البحر فينجو موسى ومن معه، ويغرق فرعون ومن معه.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) (الدخان:27).

مقارنة أخرى حسب ترتيب الآيات بين فعل الله وفعل الدجال، وقد تقرر أن حقيقة الفعل الإلهي تؤكد ولاية الله لجميع الخلائق، وفعل الدجال ينفي علاقته بهذا المقام.
فالذي لا يؤمن بالدجال يجوع، ولكن الله عز وجل يرزق من يكفر به، ودليل ذلك هو رزق الله لفرعون وهو أشد البشر كفراً حتى بلغ ادعاء الألوهية، ومع ذلك بلغ رزق الله، ما تصفه الآية، ومع استحقاقهم للهلاك كان الرزق وفيرا لم يمنعه الله عنهم وهو ينتقم منهم، ليس كما يفعل الدجال الذي يمنع الطعام عمن لا يؤمن به.
وهذه المقارنة فيها إظهار كامل لصفات الله الحق الذي يرزق عباده وهم يكفرون به.

وحتى عندما يتقرر حكم الله بحرمانهم منها، فإنها تورث إلى قوم آخرين، لأنها رزق الله، ورزق الله باق: (كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) (الدخان:28-29).

وهذه الآية تثبت العلاقة بين الكون والحق، فالكون مسلم لله رب العالمين وهذا يفسر الظواهر التي ستكون من الدجال بأنها ليست ولاءً كونيا للدجال ولكنها مجرد الفتنة أما الولاء الكوني فهو لله عز وجل، والباطل ليس له مستقر كوني، وليس للكفر أصل كوني.

والدجال هو الدليل الأول على طبيعة الكفر، وذلك عندما يضربه عيسى ابن مريم فيذوب كما يذوب الملح أو كما يذوب الرصاص كأنه لم يكن، يذوب

ولا يبقى له وجود ولا أثر، وتُعَبِّر سورة الدخان عن هذه الحقيقة بقوله عز وجل: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) (الدخان:29). وأحداث الدجال الكونية تحتم إدراك الموقف الكوني من الحق، والآية تثبت هذا المعنى فالسماوات والأرض مع أهل الحق وبريئة من أي أحداث باطلة في الكون.

وموقف الكون من الإسلام وأهله هو الولاء، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، أَلَا إِنَّهُ لَا غُرْبَةَ عَلَى مَنْ مَاتَ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ غَابَ فِيهِ بَوَاكِيهِ، إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر» [296].

ودليل أهمية هذا المعنى هو قول رسول الله ﷺ في جبل أحد: هذا الجبل يحبنا ونحبه» وذلك بسبب هزيمة المسلمين عنده، فيثبت الرسول ﷺ موقف حب الجبل للمسلمين، فعندما نقرأ أن كنوز الذهب تتبع الدجال لا نتصور أن هذا ولاءً كونيا للدجال ولكنها الفتنة المقدرة من الله للبشر.

(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (الدخان:30-32).

يقول الإمام البقاعي: (عَلَىٰ عِلْمٍ) أي منا بما يكون منهم من خير وشر». وعلم الله هو أول مراتب التقدير، فما يعلمه الله يقضيه، وما يقضيه يشاءه، وما يشاءه يفعله، فجاءت الآية لتتمم تفسير القدر الإلهي، ولكن علم الله ببني إسرائيل بخيرهم وشرهم يظهر في الواقع التاريخي لبني إسرائيل من خلال علامة الدجال.

والتصور المنهجي للعلامات يُثبت دوراً استثنائياً لبني إسرائيل في التحقيق المطلق لاختيار الله لهم على العالمين، وهو أن يكون فتح القسطنطينية على

---

(296) تفسير الطبري (75/25) ورواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت كما في الدر المنثور (412/7) وهو مرسل.

يد سبعين ألفاً من ولد إسحاق وأن فتحهم للقسطنطينية سيكون بالتهليل والتكبير.

ولعلنا نلاحظ أن عدد الذين سيفتحون القسطنطينية من بني إسحاق هم نفس عدد الذين سيتبعون الدجال من اليهود. عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة» [297]، إنه الدليل النهائي على اختيار الله لبني إسرائيل على علم على العالمين.

(عَلَىٰ عِلْمٍ) يبلغ هذه المساواة العددية الدقيقة بين عدد أتباع الدجال وعدد أتباع المهدي «سبعون ألفاً» يفتحون القسطنطينية بالتهليل والتكبير والذين من أجلهم ستكون الملحمة حيث سيطلبهم الروم وهم من بني عيص أخي يعقوب «إسرائيل» فيرفض المسلمون تسليمهم لهم ويقولون هم إخواننا لا نسلمهم وتكون الملحمة، وهذا علم الله.

(وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ) (الدخان:33).

الآيات: أي الحجج والبراهين وخوارق العادات، هكذا جاء تفسير الآية.
قال قتادة: «نعمة بينة من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، والنعم التي أنعمها عليهم، وقال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة، وقرأ: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء:35) [298].
ولذلك تأتي الآيات بذكر الكفار الظانين أنهم خارجين عن إحاطة الله بالعالمين، وكلها تؤكد الفارق بين أفعال الله وأفعال الدجال السحرية الخداعية.

إن الآيات التي تناقش موقف بني إسرائيل في سورة الدخان إنما تناقشها من منظور ثابت وهو أن بني إسرائيل هم أولى الناس بالكفر بالدجال؛ لأنهم هم الناجون من فرعون قرين الدجال بالتوافق والصفات وزعم الألوهية

---

(297) صحيح مسلم.
(298) تفسير البغوي.

والسحر.

ولأنهم أعلم الناس بحقيقة أفعال الله، من خلال آياته: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الدخان:36)، ولن يأتي الآباء؛ لأن الفاصل بين الغيب والشهادة لا يمكن تجاوزه، هذا حكم الله، أما فعل الدجال بتمثيل الشياطين في صورة الآباء فلعب وكذب وخداع.

إن المناسبة بين إثبات الوعد الحق هنا في السورة هي التقابل مع وعد الدجال بأن يموت العبد يهودياً، أو نصرانياً، ومن هنا يجعل الدجال الشياطين تتمثل للرجل في صورة أبيه وأجداده ويقولون له: يا بني لقد عاينَّا الأمر ووجدنا أن اليهودية حق أو النصرانية حق.

وكما كان الكتاب مبينا، كان الرسول مبيناً؛ ليتضاعف معنى الإبانة لأنها الصفة اللازمة لمواجهة الدجال ويزيد الرسول ﷺ الأمر بياناً، فكان كلام رسول الله ﷺ مع قتلى بدر تحقيقاً للإبانة، وذلك كما جاء في الآية: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (الدخان:16).

ثم تأتي الآيات بنموذج تاريخي لأصحاب هذا الظن الكافر الخاسر: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (الدخان:37).
وقوم تبع قوم مجرمين ظنوا أنهم خارجين عن إحاطة الله ولكن ذلك لا يكون وقد خلق السماوات والأرض بالحق.
ولكن لماذا خص الله «تُبَّع» وقومه بالذكر في هذا السياق؟ قوم تبع هم «حِمير»، ولعل هناك سببين لذلك، أحدهما يتعلق بقريش، والآخر يتعلق بالدجال.

أما الأول: فهو أن قوم تبع «حمير» هم العرق المقابل لقريش في الملك بدليل قول رسول الله ﷺ: «كَانَ هَذَا الأَمْرُ فِى حِمْيَرَ، فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَجَعَلَهُ فِى قُرَيْشٍ، وَسَيَعُودُ إِلَيْهِمْ» (299).

---

(299) أخرجه أحمد (91/4، رقم 16873) والطبراني (234/4، رقم 4227)، قال الهيثمي (193/5): رجالهم ثقات.

وأما الثاني: فهو أن قوم تُبَّع هم «حمير»، وهم من سيخرج منهم آخر الدجالين الثلاثين الذين سيظهرون قبل ظهور المسيح الدجال، حيث خص رسول الله ﷺ دجال حمير، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا, قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابين مِنْهُمْ: صَاحِبُ الْيَمَامَةِ، وَمِنْهُمْ: صَاحِبُ صَنْعَاءَ الْعَنْسِيُّ، وَمِنْهُمْ: صَاحِبُ حِمْيَرَ، وَمِنْهُمْ: الدَّجَّالُ، وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِي، يَقُولُ: هُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ كَذَّابًا»(300).

يقول الإمام البغوي في تفسيره: «وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا: كان تبع الآخر، وهو أسعد أبو كرب بن مليك، جاء بكر حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابنًا له فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله وكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام، إذ جاءه حبران اسمهما: كعب وأسد من أحبار بني قريظة، عالمان وكانا ابني عم، حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه أحمد، مولده مكة، وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه، وفي عدوهم، قال تبع: من يقاتله وهو نبي؟ قالا: يسير إليه قومه فيقتتلون ها هنا، فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن»(301).

ومن هذه الرواية تتبين المناسبة بين قوم تبع والسياق من عدة جهات، فمن جهة: أن بقايا بني إسرائيل كانوا هم السبب في ردِّ تُبَّع عن المدينة، وقالوا له: إنها مهاجر «أحمد» ولن تسلط عليها، وهم من سيخرج الدجال في

---

(300) رواه الحارث بن أسامة وأحمد بن حنبل وابن حبان في صحيحه.
(301) تفسير البغوي، آية «أهم خير أم قوم تبع».

ذريتهم ويحاول دخولها عنوة فتمنعه الملائكة، ويشير إليها ويقول: هذا قصر «أحمد»، وهو ما يفسر قول الله في السورة: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (الدخان:32).

ومن جهة أخرى، فالبشارة التي ذكرها حبرا اليهود لـ «تُبَّع» تتعلق بغزوة «بدر» وهي «البطشة الكبرى» كما ذكر المفسرون والتي قتل فيها زعماء قريش، والتي مازال ذكرها باقياً حتى الآن في سفر أشعياء.

وإذا كان علم الله في بني إسرائيل قد بلغ هذا الإحكام فما بالنا بخلق السماوات والأرض: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الدخان:38-39)، يعني خلقناهما بقدر وإحكام.

يقول الأستاذ سيد قطب في الظلال: «والواقع أن تدبر ما في خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ، وخلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة، الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه» [(302)].

إن أهم مقتضيات التصور الإسلامي الصحيح لإدراك فتنة الدجال هو أن نعلم الفارق الأكبر بين أفعال الدجال وحقيقة الفعل الإلهي، وهو الفارق بين المخلوق والخالق.

ومن هنا سبق ذِكْر حقيقة الفعل الإلهي مع ذكر علامات الساعة كلها في ترتيب البحث ولكن سورة الدخان تناقش هذا الفارق بصورة مباشرة وكاملة، فأمر الله محكم مكتوب في كتاب عنده، وكل ما علمه الله يشاؤه،

---

(302) في ظلال القرآن، سيد قطب.

وكل ما يشاؤه الله يقضيه، وكل ما قضاه الله يقدره، وكل ما يقدره الله يفعله، لا يخرج شيء عن هذه الحدود.

أفعال الله كلها حق، خلق السماوات والأرض، الدنيا والآخرة، الجنة والنار، لا لعب لا عبث لا سدى ولا لهو ولا خداع.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) (الدخان:40) وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين وقوله عز وجل: (مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم» [303].

ومن كلام المفسرين، يتبين لنا أن تسمية يوم القيامة بيوم الفصل يناسب محاولة معرفة الكفار لمصيرهم من آبائهم قبل يوم القيامة، ومن هنا كانت كلمة {أَجْمَعِين} أي أنتم وآباؤكم.

فالقيامة فصل بين الحق والباطل بغير خلط، وبين الغيب والشهادة بغير خرق، وبين الآباء والأبناء بغير تداخل، ولا يمكن قبل يوم الفصل معرفة المصائر. وأول مقتضيات الفصل أن تكون القيامة (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الدخان:42).

ولذلك كان ختام السورة عرض للنار والجنة، نار الله وجنته سبحانه، وليست نار الدجال ولا جنته، ولكن النار والجنة في سورة الدخان جاء ذكرهما باعتبارهما جزاءً لمن اتبع الدجال ولمن كفر به، فالذي اتبع الدجال، اتبعه من أجل الطعام والشراب، ولذا كان في النار طعام وشراب، كما قال تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ) (الدخان:43-45).

ولذكر شجرة الزقوم مناسبة مع الدجال، ومع غزوة بدر حيث ربط ابن عباس بين غزوة بدر وشجرة الزقوم والدجال.
فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِعِيرِهِمْ فَقَالَ نَاسٌ نحْنُ لا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا

---

(303) تفسير ابن كثير.

يَقُولُ، فَارْتَدُّوا كُفَّارًا فَضَرَبَ اللَّهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ «في غزوة بدر»، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا، وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامٍ»[304].

وكذلك تتناسب شجرة الزقوم مع الدجال في معنى الفتنة، حيث شبه الله طلعها برؤوس الشياطين، الذين سيكونون أتباعاً للدجال!

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (الدخان:49).

وهذه الآيات نزلت أساساً في أبي جهل وما فعله الله به في غزوة بدر، قال قتادة: «قال أبو جهل: ما بين جبليها رجل أعزّ ولا أكرم مني، فقال الله عزّ وجلّ: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)» [305].

وقال عكرمة: التقى النبي ﷺ وأبو جهل فقال النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أولى لك فأولى» فقال: بأي شئ تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية» [306].

والحقيقة أن مالك، خازن النار، هو من سيوجه هذا القول إلى أبي جهل مباشرة، بدليل قول مقاتل: «ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم» قال مقاتل: يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبي جهل بمقمع من حديد، فيتفتت رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده.
ولمالك، خازن النار، مناسبة مع الدجال: روى الإمام مسلم في صحيحه: عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَام رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبِطَ الرَّأْسِ وَأُرِيَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ

---

(304) ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال -وهو ابن خباب- به، وهو إسناد صحيح.
(305) الدر المنثور.
(306) تفسير البغوي آية «ذق إنك أنت العزيز الكريم».

أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ»[307].

ودليل اختصاص العلاقة بين الدجال ومالك خازن النار هو أن الرسول كان يقول رأيت موسى ورأيت عيسى ولكنه جمع في الرؤية بين مالك والدجال فقال: «وَأُرِيَ» مالكًا خازن جهنم والدجال» ولم يفصل بينهما بكلمة «ورأيت»، ليكون الدجال صاحب «النار الوهمية» أمام مالك خازن جهنم «النار الحقيقية».

(إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) (الدخان:50).
إن الذنب المذكور للكافرين هو الامتراء والشك، وقد تكرر ذكر هذا الذنب في قول الله: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ) (الدخان:9)، وقول الله: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) (الدخان:7)، لأن اليقين هو المواجهة الصحيحة الكاملة للدجال، وكما كان وصف جهنم مناسبا للدجال، كذلك كان وصف الجنة مناسبا للمتقين، كما قال تعالى:
(إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) (الدخان:52).

فكان أول صفاتها، الأمان، وهي الصفة المقابلة للدجال بأخطر صفاته وهي الرعب كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بَلَدٌ إِلَّا يَدْخُلُهُ رُعْبُ الْمَسِيحِ إِلَّا الْمَدِينَةَ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا يَوْمَئِذٍ مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ الْمَسِيحِ» [308].
«وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ، أي عيسى ابن مريم، الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ الْكَذَّابَ وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ» [309].

(يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ) (الدخان:53).
وتأتي ثياب السندس والإستبرق للمؤمنين في الآخرة عوضاً عمَّا زهدوا فيه من فتنة الدنيا التي تمثلت في ثياب أتباع الدجال، حيث قال رسول الله: «يتبع الدجال سبعون ألفا من يهود أصبهان، عليهم الطيالسة» [310]، «يخرج حين

---

(307) صحيح، أخرجه مسلم (240).
(308) رواه الإمام البخاري (1746) والإمام أحمد (19574) واللفظ لأحمد.
(309) رواه أحمد رقم/ 9259
(310) المعجم الأوسط للطبراني، ج/ 11.

يخرج على مقدمته سبعون ألفا، عليهم السيجان» [311].
والطيالسة: جمع طيلسان، وهو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن ينسج للبس خال من التفصيل والخياطة، ومن الطيلسان ثياب السدوس:

وداوَيْتُها حتَّى شَتَتْ حَبَشِيَّةً   كأنَّ عليها سُنْدُساً وسُدوسا

ولهذا جعلها كأَنها جُلِّلَتْ سُدُوساً وهو الطَّيْلَسان الأَخضر، والسدوس هو السندس [312].
والسّيجان: جمع ساجٍ، وهو نوع من الثياب منه الطَّيْلَسَان الأَخَضَرُ والأسود [313].

(كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) (الدخان:54).
ويأتي الجزاء بالحور العين عوضاً عن فتنة النساء التي يستخدمها الدجال، كما جاء في الحديث: «فأكثر تبعه اليهود والنساء» [314].

ومن هنا كانت الحور العين جزاء من يقرأ سورة الدخان ليلة الجمعة، كما روى الدارمي في سننه: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَبَارَكِ حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِى رَافِعٍ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الدُّخَانَ فِى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ، وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ» [315].

(يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) (الدخان:55).
و(آمِنِينَ) حال من ضمير (يَدْعُونَ)، والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله: (في مقامٍ أمينٍ)، أو آمنين من نفاد ذلك وانقطاعه، وتركيز السورة على صفة الأمان أمر يتناسب مع فتنة الدجال كما أسلفنا.

والفاكهة هي الطعام الذي يدل على الشبع، وهو ما يقابل الجوع في فتنة الدجال، وبذلك تتناسب الآية بكل ما فيها مع الدجال.

---

(311) أخرجه أحمد والحاكم.
(312) لسان العرب.
(313) مختار الصحاح.
(314) مجمع الزوائد.
(315) سنن الدارمي.

وقوله: (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا» (316).

وتأكيدا للأمان تكون الطمأنة (فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (الدخان:57)، ويأتي الأمان من الموت في مقابل فتنة الإحياء والإماتة التي يأتي بها الدجال.

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (الدخان:58).
لسانك العربي، الذي أوضح سورة كاملة من خلال معني كلمة واحدة هي «الدخان»، وللسان العربي مع الدجال شأن عظيم لأن العرب أشد الناس على الدجال، وأشدهم ولد إسماعيل، وأهمهم بنو تميم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَا زِلْتُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مُنْذُ ثَلَاثٍ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِيهِمْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ قَالَ وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا وَكَانَتْ سَبِيَّةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَ أَعْتِقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»(317).

وبنو تميم الذين هم أشد الأمة على الدجال هم أنفسهم أفصح العرب لسانا: حدثنا الفضل بن دكين عن أبي خلدة عن أبي العالية قال: «قرأ على النبي ﷺ من كل جنس رجل، فاختلفوا في اللغة فرضي قراءتهم كلهم، فكان بنو تميم أعرب القوم» (318)

ومن هنا تتبين مناسبة الآية:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، وخصوصا إذا علمنا أن الدجال معه كل الألسنة وأن اللسان أخطر عناصر الفتنة، وأن اللسان العربي، الذي هو خير الألسنة وأقواه، هو القادر على الدجال بكل ألسنته.

---

(316) تفسير ابن كثير.
(317) صحيح البخاري. (2370).
(318) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم 1051

(فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ) (الدخان:59).
وفيها حقيقة هامة هي طلاقة التقدير الإلهي في الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن جميع أطراف الصراع لا يخرجون عن حد الارتقاب لما سيكون من أقدار الله.

ومن هنا كانت أقوال جمهور المفسرين: (ارْتَقِبْ) (الدخان:59)، أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر (إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ) (الدخان:59)، ما يحل بهم من العذاب وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة» [319].

---

(319) تفسير السعدي.

سورة الأنبياء ويأجوج ومأجوج

العلاقة بين «الأنبياء» وبين «يأجوج ومأجوج» هي العلاقة بين «أمة التوحيد على امتداد التاريخ» والتي يمثل الأنبياء حلقاتها المتصلة، وأنويتها المتناثرة، وبين «أمة الكفر على امتداد التاريخ» والتي يشكل «يأجوج ومأجوج» معها نسبة عددية ثابتة هي عُشر العُشر، وذلك مستفاد من حديث النبي ﷺ: «يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكرى وما هم بسكرى، ولكن عذاب الله شديد، فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجلا»[320].

والعلاقة بين الأنبياء وبين «يأجوج ومأجوج» هي علاقة التضاد والتقابل من هذا المعنى، وقد أثبت الإمام البخاري هذه العلاقة بين سورة «الأنبياء» وبين علامة «يأجوج ومأجوج» حين أورد قصة «يأجوج ومأجوج» في «كتاب الأنبياء» [321].

أما ابن حجر فقد ذكر ما يُظهر مضمون هذه العلاقة في قوله: «والغرض منه هنا -ذكر يأجوج ومأجوج- الإشارة إلى كثرتهم، وأن هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عشر العشر، وأنهم من ذرية آدم، ردًّا على من قال خلاف ذلك [322].

وقد زادت العلاقة وضوحًا عندما ذكر ابن حجر قصة لقاء ذي القرنين بإبراهيم[323] فقال: «وَالَّذِي يَدُلّ عَلَى تَقَدُّم ذِي الْقَرْنَيْنِ مَا رَوَى الْفَاكِهِيّ مِنْ طَرِيق عُبَيْد بْن عُمَيْر أَحَد كِبَار التَّابِعِينَ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ حَجَّ مَاشِيًا فَسَمِعَ بِهِ إِبْرَاهِيم فَتَلَقَّاهُ، وَمِنْ طَرِيق عَطَاء عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ دَخَلَ الْمَسْجِد الْحَرَام فَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيم وَصَافَحَهُ، وَيُقَال إِنَّهُ أَوَّل مَنْ صَافَحَ، ومِنْ طَرِيق

---

(320) صحيح البخاري

(321) يراجع كتاب «علم الحديث منظور إعجازي» للمؤلف، وفيه يتعرض للمنهجية الدقيقة لترتيب وتصنيف الأحاديث عند الإمام البخاري.

(322) فتح الباري (386/6).

(323) فتح الباري(382/6).

عُثْمَان بْن سَاج أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ سَأَلَ إِبْرَاهِيم أَنْ يَدْعُو لَهُ فَقَالَ: وَكَيْفَ وَقَدْ أَفْسَدْتُمْ بِئْرِي؟ فَقَالَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِي، يَعْنِي أَنَّ بَعْض الْجُنْد فَعَلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمه، وذَكَرَ اِبْن هِشَام فِي «التِّيجَان» أَنَّ إِبْرَاهِيم تَحَاكَمَ إِلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ فِي شَيْء فَحَكَمَ لَهُ، وَرَوَى اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَحْمَد أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ قَدِمَ مَكَّة فَوَجَدَ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل يَبْنِيَانِ الْكَعْبَة فَاسْتَفْهَمَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَا: نَحْنُ عَبْدَانِ مَأْمُورَانِ، فَقَالَ مَنْ يَشْهَد لَكُمَا؟ فَقَامَتْ خَمْسَة أَكْبُش فَشَهِدَتْ، فَقَالَ: قَدْ صَدَقْتُمْ، قَالَ وَأَظُنّ الْأَكْبُش الْمَذْكُورَة حِجَارَة، وَيُحْتَمَل أَنْ تَكُون غَنَمًا، فهَذِهِ الْآثَار يَشُدّ بَعْضهَا بَعْضًا، ويَدُلّ عَلَى قِدَم عَهْد ذِي الْقَرْنَيْنِ» (324).

فهذا اللقاء يدل على التقابل بين «الأنبياء» وبين «يأجوج ومأجوج» من جهة أن إبراهيم هو أبو الأنبياء، وأن ذي القرنين هو صاحب السد المانع من خروج يأجوج ومأجوج.

ومع إبراهيم إسماعيل أصل الامتداد البشري لأمة النبي ﷺ الباقية إلى قيام الساعة وأكثر الأمم عددًا، والتي تمثل ثلثي هذه الأمة المسلمة الواحدة، وخصوصا عندما يكون لقاء ذي القرنين مع إبراهيم واسماعيل وهما يبنيان الكعبة وهو الوقت الذي أعطى الله فيه العهد بالولاية على البشر.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (البقرة:127-129).

مع زمزم الماء الباقي إلى قيام الساعة، دليلًا على بقاء أمة الأنبياء؛ فامتداد الماء هو امتداد الحياة، أي هو امتداد الذرية، وامتداد الرسالة، ولذلك كان نهر الكوثر، والذي هو حوض النبي في الجنة، عزاؤه حين عيرته قريش بأنه أبتر لا ولد له، أي لا امتداد له، فأنزل الله سبحانه: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (الكوثر:3).

(324) فتح الباري شرح صحيح البخاري/ باب قول الله تعالى ويسألونك عن ذي القرنين إلى قوله سببا).

وسنجد أن إفناء الماء سيكون أول أعمال يأجوج ومأجوج التي سيعرفون بها عند خروجهم في آخر الزمان، فيكون لقاء إبراهيم وذي القرنين بداية مرحلة جديدة في التاريخ البشري، حيث كان حبس يأجوج ومأجوج بواسطة ذي القرنين مع بداية مرحلة الأنبياء، بإبراهيم «أبو الأنبياء» وآخرها أمة النبي ﷺ.

ودون استثناء آية واحدة من السورة فإن عناصرها ترتبط بعلامة يأجوج ومأجوج من عدة جهات:

أولا: عناصر امتداد الأمة الكافرة، بما في ذلك أخطر قضايا الامتداد البشري الباطل، وبذلك يتم تفسير الوجود الجاهلي وامتداده، ثم يكون تفسير الأمة المسلمة الممتدة في مقابل الوجود الجاهلي، وهذا ما يفرض العنصر الثاني في المسألة.

ثانيا: النبوة واستقرار الوحي وثباته في الواقع البشري.
ثالثا: وحدة النبوة المستقرة الثابتة.

رابعا: والمحققة للصواب والكثرة الصحيحة من خلال اجتماع: الحكم، والإمامة في الدين، والعلم، والبركة، مع النبوة، ثم تفسير البقاء الكوني بالحفظ، وبإنشاء الأمة بعد الأمة، ثم تفسير الطبيعة الكونية الموافقة للنبوة باعتبار خلق السماوات بالحق وأثر الملائكة والآيات الكونية.

وفي النهاية تكون المناسبات اللفظية في السورة المؤكَّدة للعلاقة بين العلامة والسورة وكلماتها وألفاظها المحددة.

عناصر الامتداد البشري الكافر

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الأنبياء:5).
إن مقدمة السورة تجمع عناصر الامتداد البشري الكافر، ومن مجموع آيات المقدمة تتحدد هذه العناصر لتكون الغفلة والإعراض واللعب واللهو، ثم

الانشغال باتهام الأنبياء بالسحر، وبأضغاث الأحلام، وبالافتراء، وبالشعر. يضاف إلى هذه العناصر ما ذكرته الآيات من خلال السورة كلها مثل الإعراض (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء:24)، والاستهزاء: (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ) (الأنبياء:36)، (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)(الأنبياء:41).

ولكن هذه المقدمة ذاتها تبدأ بما يثبت الحد النهائي لمعنى المقدمة والسورة وهو اقتراب الساعة والحساب: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء:1).

ثم تأتي قضايا الامتداد البشري الكافر: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) (الأنبياء:26).

وبدعة اتخاذ الرحمن ولداً جاءت كمقابل للقرآن كذكر لنا، ولمن قبلنا، كما جاءت كمقابل لمضمون كل الرسالات (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:25).

لأنها البدعة التي استحوذت على العقل البشري الكافر أكبر مدة زمنية وأكبر مساحة بشرية، إنها البدعة الأساسية في التاريخ الجاهلي كله.

ومن هنا جاءت الآيات (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (الأنبياء:26-29) لتنفيها تماماً وتواجهها مواجهة كاملة.

ولأجل أن ادعاء الولد لله هو البدعة التي استوعبت في الواقع البشري الكافر أكبر مدة زمنية وأكبر مساحة أرضية، كان أتباع هذه البدعة أكبر كثرة

عددية من أهل النار، ولذلك جاء التعبير عن النار بخصوص هذه القضية بلفظ «جهنم» مثلما جاء في الآيات: (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (الأنبياء:29).

والتعبير عن النار بجهنم في هذه القضية دليل على كثرة أتباعها، إذ لم يأت في القرآن إلا للدلالة على كثرة الهالكين، مثل قوله: (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ۖ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف:18)، وقال: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف:179)، وقال: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) (مريم:68)، وقال: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (النساء:140)، وغيرها من الآيات.

أما القاعدة العامة المثبتة للعلاقة بين جهنم وكثرة الواردين فهي اقتران لفظ جهنم بألفاظ «مأوى» و«مثوى» و«كفى» و «جمعياً» و«لأملان» و «موفوراً».

ولكن التصور عن جهنم أنه لو ألقي حجر من سفحها لم ينزل في قاعها إلا بعد سبعين خريفاً كما قال النبي ﷺ، فهي واسعة لا تملؤها أجساد الكفار من غير يأجوج ومأجوج، ولكن تخيل هذا التصور لا يتم إلى من خلال حقيقتين: أولاً: أن يأجوج بالعدد المعروف وبوصف أجسادهم بعد موتهم قد يساعد على تخيل هذا التصور، إذ قد ذكر النبي ﷺ في أجساد يأجوج ومأجوج أنها تملأ الأرض نتناً تأكلها البهائم وتزيد لحومها – أي البهائم – بأكل أجسادها، ثانيا: أن حجم أهل النار، سواء من يأجوج ومأجوج أو كفار أهل الأرض، لن يكون بالصورة التي هم عليها، إذ يقول النبي ﷺ في ذلك: «إن ضرس الكافر يكون مثل جبل أُحُد» [325].

(325) صحيح، الألباني في صحيح الجامع، والترغيب والترهيب.

استقرار الوحي وثباته في الواقع البشري

وقول الله عز وجل: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) (الأنبياء:34)، ومعنى الآية أن موت النبي ﷺ دليل على موت كل البشر، ذلك لأن موت النبي ﷺ دليل على الساعة، فقد قال ﷺ: «اعدد ستاً بين يدي الساعة موتي ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاً الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتوكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً» (326).

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) (الأنبياء:8).

ولكن موت الأنبياء لا يعني ذهاب الوحي، ذلك أن موت الأنبياء كان بعد تمام رسالتهم، ومن أجل تمام الرسالة كانت حقيقة نجاة الأنبياء، فالوحي والنبوة ممتدان مستقران في الواقع البشري، ولكن نجاة الأنبياء، كما وردت في السورة، كانت قضاءً إلهياً وحتمياً واضحاً، له معنى ضخم هو نجاة هؤلاء الأنبياء باعتبارهم منابع لهذا الامتداد.

ابتداءً من سيدنا إبراهيم: (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) (الأنبياء:70).

وإسماعيل الذي أمر إبراهيم بذبحه ثم فداه الله بذبح عظيم ولذلك جاء ذكر إسماعيل في سورة الأنبياء: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الأنبياء:85)، لأنه قال لأبيه عندما أخبره أبوه بأمر الرؤية: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات:102)، فكانت نجاة إسماعيل أصلاً بشرياً ممتداً حتى بلغ بنسله أبو سيدنا محمد ﷺ.

---

(326) صحيح أخرجه البخاري (2957).

وحدة الأنبياء

ومن أهم الحقائق العامة في سورة الأنبياء: ووحدة الأمة المؤمنة من خلال وحدة الأنبياء، هي الحقيقة التي اعتبر الرسول ﷺ جميع المؤمنين من الأمم السابقة من الأمة الأخيرة وهي أمة النبي ﷺ فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد أي من المؤمنين أول الزمان حتى آخره، وبذلك أصبحت يأجوج ومأجوج هي المقابل العددي للأمة الواحدة وذلك بنسبة 1000:1.
ثم تتوالى الآيات لإثبات مفهوم الأمة الواحدة.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:24-25)، والآية الجامعة لهذا المعنى هي: (إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:92).
ولقد وضحت هذه الحقيقة من خلال عدة مفاهيم متفرقة في السورة: الوحدة من حيث الدعوة، ثم بعد وحدة الأنبياء تأتي الحقيقة الثابتة التي لا تنقطع في وحدة الأمة المؤمنة، وهي القرآن.
فمن أجل الأمم البشرية الممتدة كان القرآن المنزل بالتوحيد هو نفس مضمون الرسالات السابقة (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:25).

أخلاق الامتداد

وكما كان الماء سبباً كونياً للامتداد، ربط الرسول ﷺ بينه وبين الأسباب الأخلاقية لهذا الامتداد وذلك في حديث أبي هريرة الذي أورده ابن كثير تفسيراً لآية: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء:30).

عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء خلق من ماء، قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: «أفش السلام وأطعم الطعام وصِلِ

الأرحام وقم الليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام» [(327)]، وبذلك يربط الرسول بين الإجابتين، بين منشأ الوجود البشري وهو الماء وامتداد هذا الوجود بالأخلاق.

ولعل ما يؤكد على معنى أخلاق الامتداد الوارد في الحديث هو صلة الرحم التي قال فيها رسول الله ﷺ «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه» [(328)]، حيث جاءت صلة الرحم سبباً لزيادة الرزق والعمر، وهي أسباب الامتداد الأساسية لحياة الناس.

ترتيب الأنبياء في السورة

إن منهجية ترتيب الأنبياء قائمة على أساس مفهوم الامتداد البشري الصحيح ومن هنا بدأ الترتيب بموسى وهارون باعتبار أن مرحلة موسى وهارون هي أعظم مراحل أمة بني إسرائيل، حيث بدأها موسى بإخراج بني إسرائيل من عبودية فرعون، وأتمها هارون كأعظم أمة عددية بعد أمة النبي ﷺ، فكان موسى وهارون هما الصحة والامتداد.

ثم كان إبراهيم الذي حقق، وحده، مفهوم الأمة بوجوده على التوحيد: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل:120)، ثم كان إسحاق ويعقوب اللذان يمثلان الامتداد البشري لإبراهيم، ثم كان لوطاً الذي حارب داء الانقطاع البشري، أي داء الشذوذ، ثم كان داوود وسليمان اللذان يمثلان تمام الصورة البشرية بصفة شخصية، وهما يمثلان مرحلة الأمة الصحيحة الممكنة، ثم أيوب الذي جاء من اجتماع نسل إسحاق وإسماعيل، فأصبح نقطة اجتماع نسل إبراهيم، ليتحقق امتداد جديد للأمة الواحدة، ثم كان إسماعيل، ليكون بداية امتداد أساسي لنسل إبراهيم حيث كان إسحاق وإسماعيل، ثم ليكون بداية نسل محمد ﷺ، ثم كان إدريس ليمثل البقاء البشري المرتفع حتى يوم القيامة، ثم كان ذو الكفل، نسل أيوب الذي كان لا يغضب ليضمن العدل في الحكم بين الناس فأصبح يمثل مهمة القضاء بين الناس وهو محصلة الأساسيات الثلاثة لبقاء الأمة: الكتاب «الشريعة والسلطة والحق»، ثم يونس الذي يمثل غلبة القضاء الإلهي بإنشاء أمة

---

(327) أخرجه أحمد «295/2».

(328) أخرجه البخاري في (الأدب) / باب: من بسط له الرزق «5986/429/10»، ومسلم في (البر

الامتداد الصحيح، بصورة تفوق الأسباب وتعلو عليها، وذلك حينما يذهب يونس مغاضِباً ليعود وقد آمن قومه كلهم أجمعون، ثم كان زكريا ليرث آل يعقوب ثم يدعو الله من أجل امتداد الحق وميراث النبوة بيحيى الذي يرث زكريا الوارث لنبوة بني إسرائيل، ثم مريم وعيسى ليجتمعا مع أمة النبي ﷺ الذي يمثل حلقة الوصل بين بني إسرائيل وأمة محمد ﷺ حيث سيكون من الأمة الأولى ثم يعود للأمة الثانية في آخر الزمان محمد ﷺ، وهو اللبنة التي تم بها بناء الأمة الواحدة الممتدة امتداداً صحيحاً حتى قيام الساعة.

الكثرة

والملاحظة الأساسية لترتيب الأنبياء في السورة هي إثبات الكثرة، لأن الأمة المقابلة ليأجوج ومأجوج هي الأمة الممتدة الملحقة لأكبر نسبة عددية ممكنة، وقد أظهرت الآيات قصد الكثرة.

وهذا يونس عليه السلام يترك قومه ويذهب مغاضباً ليعود فيجد قومه وقد آمنوا كلهم أجمعون، ولما كان الامتداد امتداداً عددياً، فقد قال الله في قوم يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات:147).

وقد وضح هذا المعنى في ذكر الأنبياء في السورة وحيث عدَّد لنا القرآن قوم يونس الذين آمنوا بأنهم: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات:147). والله يعلم عددهم فرداً: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم:94-95).

ولكن كلمة «أو يزيدون» هي التي تعطي دلالة العدد في إثبات معني الامتداد، وكذلك عندما يذكر القرآن في سورة الأنبياء مضاعفة أهل «أيوب» في قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:84)، يتضاعف معني المضاعفة على معنى الزيادة.

وبنفس القاعدة تذكر الآيات في إبراهيم الخليل (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) (الأنبياء:72)، حيث جاء في تفسيره: فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب.
ويوازي معنى العدد في تحقيق الكثرة، معنى التمام، وهو ما أكدته قصة زكريا، الذي دعا بأن يرزقه الله الولد، ليكون تمام نسل يعقوب، في النبوة. وهذه علة قول زكريا في الدعاء: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) (مريم:6).

الحفظ الكوني العام

وكما كانت بعثة الأنبياء ووحدة رسالتهم أساساً في الامتداد البشري الصحيح، فإن هذا الامتداد يتطلب حفظاً كونياً، تبقى به الأمم حتى قيام الساعة.
ومما لا شك فيه أن الامتداد يقتضي الحفظ، ولهذا كانت حقيقة الحفظ في سورة الأنبياء كاملة، ومما ورد في معناه قول الله عز وجل: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنبياء:22)، وقول الله عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء:33)، وقول الله عز وجل: (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء:42). وقال الله في داود وسليمان: (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) (الأنبياء:82)، وذلك بعد فضائل داود وسليمان.

غير أن أهم الحقائق القدرية التي أبقى الله بها الامتداد البشري الصحيح هو مجيء قوم آخرين بعد هلاك السابقين من الكافرين، فقال تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (الأنبياء:11).

وبذلك اجتمعت في السورة مقتضيات الامتداد البشري الصحيح فكانت نجاة الأنبياء من أجل الوحي وبقاء الشرائع على الرغم من موت الأنبياء، والحفظ الكوني وإنشاء الأقوام بعد الأقوام الهالكين.

ثم تأتي قضية يأجوج ومأجوج، وقد لا يبلغ العقل البشري الحكمة الكاملة من يأجوج مأجوج وبغير هذه الحكمة، فإن هناك أساساً للإيمان بهذه العلامة، وهو أن خلق السماوات والأرض وما بينهما كان بالحق.

ليس هنا ك لعب، ليس هناك لهو، (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) (الأنبياء:16-19).

وقصة يأجوج ومأجوج غريبة على العقول، بشر يفسدون، فيُردم عليهم ردم حتى يفسد الذين فوق الأرض مثل فسادهم فيُخرج الله إليهم المفسدين من تحت الردم فيقتلونهم، ومهما كانت محاولة تفسير العلامة فإن المعالجة لهذه الغرابة لن تكون إلا آية: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (الأنبياء:23).

سورة النمل وعلامة الدابة

من قواعد علم المناسبة، قاعدة ذكر الأنبياء وترتيبهم في السور، وسورة «النمل» مثال واضح على هذه القاعدة؛ حيث ورد فيها ذكر جمعٌ من الأنبياء؛ هم «موسى، وداود، وسليمان، وصالح، ولوط، ومحمد صلى الله عليهم جميعًا»؛ حيث لا تجمع بينهم أي مناسبة أخرى؛ من عِرق واحد أو ترتيب زمني واحد أو مكان جغرافي واحد، لكنهم يرتبطون -جميعًا-بعلامة الدابة التي ستخرج في آخر الزمان، ويمثل ذكر كل نبي جانبًا أساسيًّا في فهم هذه العلامة.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود، وعصا موسى بن عمران، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتخطم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الحواء ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول

هذا: يا كافر» [329].

ولما كانت الدابة علامة من علامات الساعة اتجهت الآياتُ من بداية السورة إلى الحديث عن «الآخرة»؛ حيث جاء لفظ «الآخرة» في ثلاث آيات متوالية:

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) (النمل:6).
والتعقيب بقوله تعالى: (من لدن حكيم عليم) يدل على اتجاه السورة من البداية أيضًا نحو إثبات الحكمة والعلم في أفعال الله سبحانه وتعالى، كما سيأتي ذكر الآخرة في قوله تعالى: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) (النمل:66).

ذكر موسى عليه السلام

فقد جاء مضمون قصة موسى، عليه السلام، مرتبطًا بالعصا «التي ستكون مع الدابة»؛ ذلك أن القصة بدأت بتكليم الله، عز وجل، لموسى عند جبل الطور: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ) (طه:17).

قال تعالى: (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (النمل:7-9).
وتجربة العصا، كما جاءت في سورة النمل، هي نفسها مضمون قصة موسى مع فرعون، وهي أيضًا أهم ما جاء في وصف الدابة؛ ليتأكد مدى جوهرية العلاقة بين ذكر موسى والدابة، فكما كان فرعون، قبل بداية الصراع، بالنسبة لموسى منافع، كانت العصا مع موسى، وكما تحوَّل فرعون إلى عدو يريد قتل موسى، تحولت العصا إلى حية، وكما فرَّ موسى

---

[329] أخرجه أحمد (295/2) (7924) وابن ماجة (4066). تجلو: تنور، الحواء: البيوت المجتمعة من الناس على ماء، تخطم: تسم.

من فرعون، كان فراره من الحية.

والآن يجب أن يعود موسى إلى الحية، بوعد من الله أن تعود إلى سيرتها الأولى؛ قال تعالى: (خُذْهَا ولا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى) (طه:21).

وكذلك يجب أن يعود إلى فرعون بوعد من الله؛ أن يحفظه من فرعون؛ قال تعالى: (لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ) (هود: 81)، وقال سبحانه: (قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) (طه:46).

وكما أعاد الله الحية عصا، عاد فرعون عاجزًا عن قتل موسى، لقد كان من المتوقع أن يقتل فرعون موسى بمجرد أن يراه؛ لكنه لا يزيد عن قوله: (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى) (غافر:26)، بل يضع نفسه في مقارنة مع موسى، وهو ملك مصر: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) (الزخرف:51، 52)، وكأنه كان مضطرًا إلى هذه المقارنة!

وبذلك كانت تجربة العصا، في سورة النمل، هي نفسها مضمون قصة موسى مع فرعون، ودليل هذا الفهم: أن الأمر الموجه إلى موسى من الله، سبحانه وتعالى، بالرجوع إلى العصا كان بصفته «من المرسلين»؛ قال تعالى: (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النمل:11)، أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطَفيك رسولا وأجعلك نبيًّا وجيهًا[330]، قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولًا بهذا القول[331]، ليكون الأمر بالرجوع إلى العصا بمقتضى الرسالة وبصفته «من المرسلين»؛ لأن الرجوع إلى العصا في حقيقته تجربة كاملة للعودة إلى فرعون، وكذلك تكون العصا مع الدابة، فتجلو وجه المؤمن بالعصا.

وفي هذه الآية إشارة إلى إمكانية تغيير العمل وتبديل السوء بالحسنى وهو

---

(330) تفسير ابن كثير (180/6).
(331) تفسير القرطبي (285/13).

الأمر الدال على مغفرة الله ورحمته لنفهم أن ظهور الدابة وعدم الانتقال من الكفر إلى الإيمان بعدل الله وحكمته.

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (النمل:13).
ومناسبة هذه الصيغة مع آية الدابة هي ذكر تحول عمل الإنسان من السوء إلى الحسن وهو الأمر الذي لن يكون بعد ظهور الدابة؛ حيث سيختم لكل إنسان بما عليه من العمل، فالدابة تخطم أنف الكافر أي تسمه.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (النمل:14)

وعلامة الدابة تعني في جوهرها قضية اليقين؛ لأن الدابة ستخرج لأن الناس لا يوقنون بآيات الله، ولذا أخذت مناقشة قضية اليقين قدرًا كبيرًا من آيات سورة النمل، وكان أول ذلك هو مناقشة اليقين النفسي الذي لا يكون معه عمل وهو كعدمه كما في قول الله سبحانه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمفْسِدِينَ) (النمل:14).

واجتماع الجحود والاستيقان في قلب واحد ووقت واحد سؤال يجب الإجابة عليه، فليس الجحود انتفاء معرفة القلب ولكنه مخالفة الجوارح لمقتضى معرفة القلب، ولعل هذه الآية بتفسيرها تمثل الأساس في قضية اليقين الواردة في السورة، لأن موضوع السورة والدابة، هو العمل الذي لا ينفع اليقين النفسي إلا به.

داود وسليمان والدابة:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) (النمل:15)
والمناسبة في ذكر داود تتضمن حقيقتين مهمتين بالنسبة لعلامة الدابة:
الأولى: أن خروج الدابة جاء بسبب كفر الناس بالمرسلين وآياتهم؛ والرسالة هي خطاب الله للإنسان، وأعلى درجات المخاطبة «الكلام»، ومن هنا كان فضل موسى على الرسل هو كلام الله له: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى

بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة:253).

وعندما يكون الفضل في كلام الله للأنبياء الذي يبلغوه للبشر نفهم معنى الحرمان من هذا الفضل عندما يكون المتكلم مع الناس دابة من الأرض.
لذا كانت العقوبة على هذا الكفر هي النزول بمستوى البشر عن أن يكونوا أهلًا للمخاطبة بطريق المرسلين: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ).

فجاءت الدابة ومعها هذه الآيات، فتُكلِّم الناس بصيغة تتناسب مع ما وصلوا إليه من الكفر: بالتوبيخ والخطم؛ «حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة، فتأتيه من خلفه تقول: يا فلان، الآن تصلي؟! فيقبل عليها فتسمه في وجهه، ثم تنطلق..»[332]، وعلى ذلك تكون الدابة مرتبطة في دلالتها بما بلغه الإنسان من التدني، والانحطاط.

ومن هنا كان من الضروري إثبات المقام الأصلي للإنسان؛ لأن إثبات هذا المقام هو نفسه الذي يُثبت معنى الانحطاط الذي بلغه هذا الإنسان، حتى بلغ أن يُخاطب من خلال الدابة، وعندما يُذكر المقام الأصلي للإنسان يُذكر «داوود» كنموذج لهذا المقام، بدليل حديث الوبيص الوارد في سنن الترمذي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عيني كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أي رَبِّ، مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ..»[333].

ومقام داود بين ذرية آدم هو بُعد واحد من أبعاد هذا المقام؛ ولكن لمقام داود في إطار قضية الدابة أبعادًا أخرى منها: أن ذكر فضل داود بالنسبة للأنبياء جاء مرتبطًا بالزبور وهو كتاب الأقدار الكونية الغيبية حتى قيام الساعة،

---

(332) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (88/51)، مسند الطيالسي (237/2).
(333) سنن الترمذي (330/11) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ودليل ذلك قول الله عز وجل: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) (الإسراء:55)، وفيه يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وربك يا محمد أعلم بمن في السموات والأرض وما يصلحهم؛ فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلم بمن هو أهل للتوبة والرحمة ومن هو أهل للعذاب، أهدي للحقّ من سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضلّ من سبق له مني الشقاء والخذلان، عن قتادة، قوله: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلَّم موسى تكليمًا، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله، من كلمة الله وروحه، وآتى سليمان مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورًا، كنا نحدِّث دعاء عُلِّمه داود، تحميد وتمجيد، ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وغفر لمحمد ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر»[334].

ويقول الرازي في تفسيره: «فإن قيل: ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر؟ إن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمدًا خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم» [335].

ويقول الألوسي: «وفيه إيذان بتفضيل نبينا ﷺ؛ فإن كونه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم-مما تضمنه الزبور، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله عز قائلًا: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون) (الأنبياء:105) يعني محمدًا ﷺ» [336].

وامتدادًا لمفهوم المقام الإنساني الذي يمثله الإنسان النموذج «داود» يأتي ذكر سليمان ليشاركه هذا المقام: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ).

---

(334) تفسير الطبري (470/17).
(335) تفسير الرازي (74/10).
(336) تفسير الألوسي (487/10).

فمكانة الإنسان الأصلية محفوظة، وذكر داود وسليمان هو الدليل على هذا المقام، بل إن موقف الدابة، بعد خروجها مباشرة، من المؤمنين الثابتين هو تقرير المقام الأصلي للإنسان كما قال رسول الله ﷺ: «وثبتت عصابة من المؤمنين، وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري».

سليمان والدابة:

وكما بدأت قصة موسى بآية العصا، بدأت قصة سليمان بتعلم منطق الطير، فتبدأ بـ «الحقيقة الأولى» المتعلقة بعلامة الدابة التي ستنطق وتكلم الناس مثلما ينطق الطير:
(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (سورة النمل 16- 17).

ثم ذِكر «**تكلم النملة**»: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل 18- 19)، ولعلنا نتبين محورية الموضوع من تسمية السورة؛ حيث نُسبت إلى النملة التي سمع سليمان قولها.

ثم ذكرت «**تكلم الهدهد**» بعد النملة: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) (النمل 21- 22).

ولعل المناسبة في قصة الهدهد بين «**سبأ والدابة**» هي أن الخرجة الأولى للدابة ستكون من أقصى اليمن كما جاء أنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الدَّابَّةُ يَكُونُ لَهَا ثَلَاثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ: فَتَخْرُجُ خَرْجَةً فِي أَقْصَى الْيَمَنِ..».

وأقصى اليمن هو سبأ، كما جاء في تفسير الرازي: «أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: (قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)» [337]، وبذلك تكون مناسبة ذكر سبأ في قصة الهدهد هي أنها المخرج الأول للدابة.

وتتواصل الآيات في ذكر الحوار بين سليمان والهدهد ليساهم هذا الحوار في تقرير قضية الدابة؛ لأن الدابة من غيب الأرض؛ قال تعالى: (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (النمل 25- 26)، لأن الخَبْءَ كلُّ ما غاب [338].

وقد ذكر الهدهد هذا المعنى الإلهي من خلال واقعه، حيث أن الهدهد من الطيور التي تتميز بقدرتها على استخراج غذائها من الدود وهو «مخبأ» تحت الطين في باطن الأرض.

وارتباط ذكر الهدهد لفعل الله «إخراج الخبء في السماوات والأرض» بخبرته الخاصة يُثبت قاعدة مهمة في قضية الأسماء والصفات: وهي أن أسماء الله وصفاته وأفعاله المعلومة لنا ينطبق عليها حدود معرفة الهدهد بالله، فتكون هذه الأسماء والصفات والأفعال المعلومة لنا هي المناسبة لنا والمحدودة بواقعنا البشري كذلك.

ولذلك ورد أن لله أسماء لا يعلمها إلا هو سبحانه، وهو قول رسول الله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء همي وغمي» [339].

---

(337) تفسير الرازي (496/9)، انظر: فتاوى الشيخ ابن جبرين (192/63)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (75/3).

(338) لسان العرب – مادة: خبأ.

(339) مسند أحمد (4406).

وقد تجانس كلام الهدهد مع كلام الدابة في إدراك حقيقة التوحيد والمفاصلة بين الإيمان والكفر، وبذلك كان كلام الهدهد لا يقل إعجازًا عن كلام الدابة، فإذا كانت الدابة ستعرف المؤمن من الكافر وتفاصل بينهما فإن الهدهد تكلم بنفس المستوى وحقق نفس المفاصلة من خلال:

- البصيرة في معرفة الواقع وتقييمه، (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فيُقيّم الهدهد الواقع: شرك بالله ومعرفة بالسبب وهو الشيطان وتزيينه العمل والصد عن السبيل.

- المنهج والعقيدة، (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [(340)].

العلاقة بين سليمان وملكة سبأ، وبين الدابة

والعلاقة بين قصة سليمان وملكة سبأ وبين الدابة هي المضمون الثابت الواضح للقصة، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار أن انقطاع هذا الأمر هو السبب الأساسي لظهور الدابة: عن ابن عمر في تفسير قوله تعالى: (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض) قال: «إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر» [(341)].

وكل نصوص القصة تثبت هذا المضمون؛ ابتداءً من مواجهة الهدهد لسليمان:
(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي

---

(340) يقول ابن القيم رحمه الله: «وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواقع الماء تحت الأرض لا يراه غيره، ثم ذكر من أفعاله -سبحانه- إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض من أفعال الرب تعالى بخصوصه؛ إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض».

(341) تفسير ابن أبي حاتم (77/51).

مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) (النمل: 27-37).

وانتهاءً بإسلام ملكة سبأ مع سليمان والذي سيؤكد لنا أن أساس الدعوة ليس بالكلام الذي تعرض به القضية فقط بل بصحة الأسلوب العملي الذي ينجح في كشف حقيقة الإيمان الكامنة في كيان الإنسان، حتى دون الطلب الصريح أو الدعوة المباشرة ولو بكلمة واحدة، فكل ما حدث من سليمان مع ملكة سبأ أنه أدخلها في تجربتين:

الأولى: لإثبات قوة العقل وكانت بأخذ العرش وتنكيره ثم عرضه عليها وسؤالها: (أهكذا عرشك)؟ فأجابت أمثل إجابة فقالت: (كأنه هو)، ولم تقل هو لأنه منكّر، ولم تقل: ليس هو لأنه هو.
قال تعالى: (قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) (النمل: 38-42).

فأدخلها في **التجربة الثانية** وكانت لإسقاط الغرور عن نفسها:
قال تعالى: (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل: 43-44).

وبإثبات الذكاء وإسقاط الغرور تمت دعوة سليمان للملكة فقالت: (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين).

ثمود وقوم صالح والدابة

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (النمل: 45-53).

فهذه النتيجة التي انتهى إليها قوم صالح بعد دعوته لهم، هي نتيجة كل الرسالات وهي أيضًا الواقع الذي ستختم عليه الدابة فلا يتغير بعدها أبدًا: «**فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، حَتَّى إن أهل الحواء ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر**».

والمناسبة بين ثمود والدابة هي الناقة التي تتجانس في طبيعتها مع الدابة؛ حيث إن الآيتين كانتا بالتولد من الأرض.

وفي هذه المناسبة يقول الألوسي: «وفي تقييد إخراجها -أي الدابة-بقوله سبحانه: {مِّنَ الأرض} نوع إشارة -على ما قيل-إلى أن خلقها ليس بطريق التوالد؛ بل هو بطريق التولد» [342].

---

(342) تفسير الألوسي (44/15).

قال القرطبي: «أولى الأقوال للعلماء في صفة الدابة: أنها فصيل ناقة صالح وهو أصحها، والله أعلم»، واستدل بحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة، وفيه: «**ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة، خيرها وأكرمها على الله، المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام**» ووجه الدلالة من هذا الحديث قوله: وهي ترغو، والرغاء للإبل (343).

قوم لوط والدابة

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) (النمل: 54-58).

والمناسبة بين ذكر نبي الله لوط والدابة هي خرجة الدابة من «سدوم» مكان قوم لوط؛ وذلك كما ورد في القرطبي وابن كثير: «**وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها..**» رواه ابن أبي حاتم (344).

ذكر النبي ﷺ والدابة

وهو الوارد في قوله تعالى: (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (النمل: 91).
ومن مجمل أقوال العلماء تحدد في خروج الدابة ثلاثة مواضع: هي: أقصى اليمن، وسدوم (345)، ومكة.

---

(343) أشراط الساعة (201/1).
(344) تفسير ابن كثير (214/6).
(345) عن وهب بن منبه، عنه، أنظر: تفسير ابن كثير (214/6)، تفسير القرطبي (237/12).

وإن كان ذكر معجزات الأنبياء ومعجزات الدابة -قبل آخر الزمان-مرتبط بمن يراها في زمن الأنبياء ومن يراها في زمن الدابة؛ فالآيات الباقية لكل البشر في كل زمان ومكان منذ خلق آدم حتى قيام الساعة هي الرسالات والنبوات التي تقوم بها حجة الله على جميع الخلائق، وهي أيضا الآيات الكونية في السماء والأرض، ومن هنا اجتمعت هذه الآيات في سياق واحد يرتكز بصورة واضحة على الأرض؛ ليكون ذلك هو المناسبة بين السياق والدابة باعتبارها أعظم آيات الأرض:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل: 59).

وتلك هي الحجة الشرعية وهم الأنبياء والمرسلون، يأتي بعدها الحجة الكونية:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل:60).

فتبدأ الآية بالسموات والأرض ولكنها لا تنتهي من ذكر السماء إلا وقد وجهتنا إلى «الأرض»:

(أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (النمل: 61-64).

والسؤال المتكرر في السياق معناه: إثبات أن الله وحده –سبحانه-هو المتصرف في الخلق وهو نفس المعنى المأخوذ من النص الوارد في الدابة، وهو قول رسول الله ﷺ: «**أن الدابة لها ثلاث خرجات من الدهر**»؛ لأن الدهر هو الدليل على خضوع الزمان وأحداث الزمان لإرادة الله عز وجل،

بدليل قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «**قال الله يسب بنو آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**» [346]، ومن هنا كان النهي عن سب الدهر؛ فإن الأيام والليالي بيد الله عز وجل.

ولكن السياق يختتم بما يكون أساسًا لعلامة الدابة باعتبارها من غيب الأرض: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل: 65).

وكذلك باعتبارها دليلا على الآخرة: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) (النمل: 66)، أي: تتَابع علمهم في الآخرة وتواطأ حين حَقَّت القيامة وخسروا وبان لهم صدق ما وُعِدُوا حين لا ينفعهم ذلك العلم [347]، ونفي المنفعة بالعلم يبدأ بخروج الدابة؛ حيث تقول للكافر: يا فلان، الآن تصلي؟! فتقبل عليه فتسمه في وجهه.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) (النمل: 67).

فسيخرجون بعد أن يكونوا ترابًا، هكذا يكون البعث: ينفض جميع ولد آدم عن أنفسهم التراب كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**..** وأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول من ينفض التراب عن رأسه ولا فخر» [348].

تمامًا كما ستفعل الدابة وتنفض عن رأسها التراب كما قال رسول الله ﷺ: «ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة -خيرها وأكرمها المسجد الحرام-لم يرعهم إلا وهي قرب ترغو بين الركن والمقام، تنفض عن رأسها التراب» [349].

---

(346) البخاري (6181) ومسلم (6003).
(347) تفسير الطبري (940/19).
(348) المعجم الأوسط للطبراني (5239).
(349) تجلو: تنور، الحواء: البيوت المجتمعة من الناس على ماء، تخطم: تسم.

(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (النمل: 68). وباعتبار أن المرسلين هم الحجة الشرعية المانعة من الوصول بالبشر لمرحلة الفساد الذي سيكونون عليه عند خروج الدابة-ومن هنا كان توجيههم في مواجهتهم لأعدائهم الذين اعتبروا الآخرة من الأساطير حيث أمرهم الله بالسير في الأرض ليستبينوا مصير المجرمين.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل: 69). وكانت العناية بالمرسلين في تلك المواجهة: فأمر الله رسوله بأن لا يأسى عليهم ولا يضيق بمكرهم.

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) (النمل: 70). ويواجههم في تساؤلهم عن وعد الله وينذرهم بالساعة وأشراطها: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) (النمل: 71- 72).

وهنا يرد في السورة نفس اللفظ الدال على القرب بين الساعة والدابة، والوحدة اللفظية للموقفين تدل على غرض الربط بينهما. ففي الساعة تقول سورة النمل: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ).

(رَدِفَ لَكُمْ) وراءكم وأنتم لا تدرون، وقريبًا منكم وأنتم لا تشعرون، قال ابن عباس (رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون [350]. وبذلك تكون الدابة أقرب تشبيه لقرب الساعة من الإنسان مثلما تكون الدابة ردف الرجل وهو لا يدري كما جاء في الحديث الذي رواه ابن كثير في تفسيره للآية: «**حتى إن الرجل ليتعوذ منها في الصلاة فتأتيه من خلفه، لا ينجو منها هارب**» [351].

(350) تفسير ابن كثير(209/6).
(351) انظر: أخبار مكة للفاكهي.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (النمل: 73-76).

بنو إسرائيل، والدابة

ومناسبة ذكر بني إسرائيل قبل ذكر الدابة يأتي من ناحيتين:

الأولى: أن «الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» هو اختلاف اليهود والنصارى في عيسى ابن مريم؛ كما ذكر الطبري في تفسير الآية، قال: «إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحقّ، في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحقّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد»[352].

والثانية: أن الدابة ستخرج وقد تحقق القول الفصل في عبودية عيسى ابن مريم؛ حيث تخرج الدابة وهو عليه السلام يطوف بالكعبة، ووصفُ النبي ﷺ لعيسى وهو يطوف بالبيت في آخر الزمان بقوله: «**رأيت عيسى وهو يطوف بالبيت متكئا على عاتق رجل**»[353] وفي نفس النص يصف رسول الله ﷺ المسيح الدجال وهو يطوف بالبيت متكئًا بين رجلين، وفي ذلك إثباتٌ لافتقار عيسى والدجال، ونفيًا للألوهية التي ادَّعاها النصارى لعيسى، ونفيًا للألوهية التي ادعاها الدجال لنفسه[354].

حيث روي في خبر عن النبي ﷺ: «**إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى، وإنها**

---

(352) تفسير الطبري (439/19).
(353) أخرجه البخاري (5902، 6999) ومسلم (443، 1672) كلاهما عن ابن عمر.
(354) انظر: المسيح دراسة سلفية ـللمؤلف.

تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سمة كأنها كوكب دري، وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر» [355].

وملاحظة أن الدابة ستخرج وعيسى يطوف بالبيت تستوجب التفسير؛ ذلك أن ترتيب ظهور الدابة هو بعد الدجال وعيسى ويأجوج ومأجوج، وأن ظهور الدابة مقترن بآخر العلامات ظهورًا وهي خروج الشمس من المغرب، ومن هنا فإن ترتيب العلامات كما وردت في النصوص أمرٌ يتطلب المناقشة، لأن النصوص الواردة في ترتيب العلامات جاءت بأساس منهجي، وليس لمجرد الترتيب الزمني.

وهناك عدة أبعاد في ترتيب العلامات:

منها: الترتيب من حيث الفرق بين وجود العلامة وفاعليتها، لأن وقت وجود العلامة لا يعني أن يكون هو وقت فاعليتها في الواقع، فالدجال موجود ولكن ليس له أي أثر كعلامة؛ بل إنه في حديث الجساسة يحبذ الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام[356]، حيث إن هذا الظهور له دلالته وهي التقابل مع المسيح عيسى من حيث وجوده، فكما أن عيسي موجود يكون الدجال موجود، تحقق التقابل التام بينهما، وكذلك يكون وجود الدابة وابتداء ظهورها مع وجود عيسى؛ ودلالته هي العلاقة المنهجية بينهما، ولكن فاعليتها كعلامة ستبدأ بعد عيسى والدجال ويأجوج ومأجوج.

وفي إطار الارتباط بين الحكمة من العلامة وترتيبها في النصوص جاء الإخبار عن الدابة والشمس بإطلاق دون ترتيب بينهما؛ لاعتبار اشتراكهما في علة واحدة وهي أنه لا ينفع نفس أيمانها إذا ظهرت إحدى هاتين العلامتين.

---

(355) تفسير القرطبي (237/13).

(356) في حديث تميم الداري وفيه يقول الدجال: «أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِي الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّى: إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِى الْخُرُوجِ» صحيح مسلم (7573).

ولذلك قال ﷺ في علامة الشمس والدابة من حيث الترتيب: «**وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا**» [357].

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) (النمل: 77-79).

وتفسير خروج الدابة هو كفر الناس بالمرسلين وآياتهم؛ والرسالة هي خطاب الله للإنسان، أما تفسير الكفر نفسه فهو عدم سماع الناس لهذا الخطاب.

فخرجت الدابة تكلم الناس؛ لأنهم لم يسمعوا كلام الأنبياء، ومن هنا كان قول الله قبل ذكر الدابة مباشرة:

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) (النمل: 80-82).

ولكن مستوى الكفر والجحود الذي بلغه الناس الذين ستخرج الدابة عليهم كان قد بلغه من قبل أفواجٌ من الأمم السابقة كانوا أشد الناس فسادًا؛ فاقتضى عدل الله أن يتحدد موقفهم بمناسبة ذكر الدابة.

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن **يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا** فَهُمْ يُوزَعُونَ) (النمل: 83). وقد اختصت الآية من كل أمة فوجًا باعتبارهم أشد الأقوام، كما قوله تعالى: (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) حيث قال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشرِّ، تمامًا مثلما ذكرت السورة أشد الناس إفسادا مثل الرهط من قوم صالح، قال تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) الذين قتلوا الناقة وحاولوا قتل صالح، فسيُسأل هؤلاء يوم القيامة: (حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم

---

(357) صحيح مسلم (7570).

بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (النمل:84).

ولكنهم لن يستطيعوا الإجابة:
(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ) (النمل: 85).
ففي الوقت الذي ذكرت فيه السورة نطق «الطير والنمل والهدهد والدابة»، أما هؤلاء (فهم لا ينطقون).

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (النمل: 86). ومناسبة خروج الدابة بقوله تعالى: {والنَهارَ مُبْصِرًا} هو كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها أو خروج الدابة على الناس ضحى**» [358]؛ لأن وقت الضحى هو وقت إبصار النهار لأنه وقت تمام الضياء؛ حيث ورد في تفسير قوله تعالى: {والنَهارَ مُبْصِرًا} أي «منيرًا» [359] أو «مضيئًا» [360].

وبذلك يجتمع في الدابة صفة الإبصار في طبيعتها -وهي فصيل ناقة صالح- ، التي جعلها الله مبصرة؛ فعن قتادة قال في تفسير قوله تعالى: (وآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً): أي بيِّنة.

وكذلك وقت ظهورها في الضحى عندما يكون النهار مبصرًا.
ومن هنا كان الربط عند الطبري بين آية الناقة وآية النهار؛ حيث قال: «وإنما عنى بالمبصرة: المضيئة البينة التي من يراها كانوا أهل بصر بها، أنها لله حجة، كما قال تعالى: (والنَهارَ مُبْصِرًا)» [361].

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (النمل: 87). والمناسبة بين هذه الآية والدابة هي «صيحات الدابة الثلاث» التي ستكون ما بين السماء والأرض، ذلك أن

---

(358) مصنف ابن أبي شيبة (619/8).
(359) تفسير ابن أبي حاتم (124/51).
(360) تفسير الطبري (397/17).
(361) تفسير الطبري (478/17).

الدابة سيكون لها صرخات بين الخافقين؛ أي بين السماء والأرض، وأن هذه الصرخات سيسمعها كل من بين السماء والأرض كما سيسمع من في السماوات والأرض نفخة الصعق، وهو قَول رَسُول اللَّهِ ﷺ: «**تَخْرُجُ الدَّابَّةُ، فَتَصْرُخُ ثَلاثَ صَرَخَاتٍ، فَيَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ**» [362]، وسيكون سمعًا قهريًّا؛ ذلك لأنهم لم يسمعوا للأنبياء والمرسلين من قبل!!.

وقوله تعالى: (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) أي صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد [363].

وهذا التفسير له علاقة بالدابة حيث سيكون الناس، أمامها داخرين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب» [364]، وكما قال: «وتخطم أنف الكافر بالخاتم».

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (النمل: 88-90).

وهذه المجموعة من الآيات تناقش العلاقة بين الأرض وعمل الإنسان فيها؛ حيث تثبت العلاقة بين خلق الجبال وهي أوتاد الأرض من حيث حقيقتها المتحركة وصورتها الثابتة من خلال مرورها مر السحاب مما يدل على إتقان الله لكل شيء وبنفس هذا الإتقان يكون علم الله بما نفعل؛ ليتجانس خلق الجبال وعمل الإنسان من خلال هذا الإتقان، لتتواصل الآيات التي تناقش قاعدة الحساب على عمل الإنسان بنفس الإتقان والعلم.

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (النمل: 91).

---

(362) المعجم الكبير للطبراني (335/19).
(363) تفسير ابن كثير (216/6).
(364) المعجم الكبير للطبراني (286/3).

وخروج الدابة «الخرجة الأخيرة» سيكون من مكة، وهو الخروج الأساسي لها، ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: «**لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية -يعني مكة-، ثم تكمن زمنا طويلا، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية.**» (365).

مما يدل على أن الخرجة الأساسية هي مكة، وأن ما قبل مكة هو تمهيد لها؛ ولذلك يذكر الحديث أن الخرجة الأولى في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية «مكة» والخرجة الثانية في البادية ويدخل ذكرها مكة، ثم الخروج في القرية ذاتها «مكة».

ولعلنا نلاحظ في قوله تعالى: {رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} ذكر حرمة البلدة «مكة»، والتي وردت تفصيلا في الحديث: «**ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة -خيرها وأكرمها على الله-المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام، تنفض رأسها عن التراب**» (366).
ومما يثبت دلالة الحرمة -الواردة في الآية والحديث-على المناسبة بين آيات السورة.

هو ما يثبت غلبة هذه الحرمة على شدة العذاب الذي وقع بقوم ثمود بعد قتلهم الناقة، ذلك أن من بين قوم ثمود المستحقين للعذاب من كان في حرم مكة ولم يقع عليه العذاب إلا بعد خروجه منها، مما يؤكد أن شدة عذاب قوم ثمود لم تطغَ على حرمة مكة، وهي قصة أبي رغال التي رواها ابن إسحاق: «أن النبي ﷺ لما خرج إلى الطائف مر بقبر أبي رغال فقال: إن هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، **وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه**، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه».

وفي رواية: «**كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذابَ الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه**»، وقيل: إن أبا رغال كان دليل أبرهة في طريقه لهدم

(365) مسند أبي داود الطيالسي 1153
(366) المصدر السابق

الكعبة، قال الحافظ ابن كثير: والجمع بينهما أن أبا رغال المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى ورجمه الناس كما رجموا قبر الأول أيضا.

وفي كنز العمال: «**لا تسألوا نبيكم الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج: {فعتوا عن أمر ربهم فعقروها} فأخذتهم الصيحة، فأهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحدا كان في حرم الله تعالى، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**» [367].

وقد صحح محمد بن إسماعيل البخاري حديث سالم عن أبيه «أن رجلا من ثقيف طلق نساءه فقال له عمر: لتراجعن نساءك أو لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبي رغال».

كما أننا نلاحظ أيضًا أن خروج الدابة من مكة وهي -كما ورد في الحديث-: «أعظم المساجد على الله حرمة، خيرها وأكرمها على الله» يكون على النقيض من خرجتها الأولى من سدوم قرية لوط أشر الأماكن؛ ليكون خروج الدابة من جميع الأرض خيرها وشرها.

سورة التوبة وعلامة الشمس

الشمس والدابة

الشمس قرينة الدابة في الخروج، لأنهما قضية واحدة، حيث ساوى رسول الله ﷺ في احتمالية ظهور أحدهما قبل الأخرى، وفي تبعية الثانية للأولى منهما فقال: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا» [368]، أما وحدة القضية فهي حسم العمل والموقف الإنساني، فالدابة

---

(367) كنز العمال، وأشار المتقي الهندي إلى تخريجه: (حم حب ك طس وابن مردويه عن جابر) وقد ضعفه الألباني.
(368) صحيح، أخرجه مسلم (5234)

لحسم الموقف بحسب العمل، حيث تكتب على جبين المؤمن كلمة «مؤمن» بحسب عمله، وعلى جبين الكافر كلمة «كافر» بحسب عمله، أما الشمس فهي لحسم العمل حسب الموقف، فمتى خرجت الشمس من مغربها فلا عمل للإنسان، كما قال الله تعالى: {لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} (الأنعام:158).

وما يؤكد وحدة القضية بين الدابة والشمس هو معنى الفرقان، ذلك أن الدابة فرقان بين أهل الهدى وأهل الضلال، أما الشمس فقد ذكرت مثلاً كونياً للفرقان بين الهدى نفسه والضلال نفسه، وذلك في قوله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً}(الفرقان:45)، لأن الآية تعالج الدليل القطعي وعلاقته بالإحساس البشري في استيعاب الإنسان للحقائق، فلو أنك نظرت إلى الظل فإنك لا تشعر بامتداده، وقد يغلب عليك هذا الظل، وأنت لا تنتبه إلى حركته الدقيقة الخفية، حتى أنك تضطر لمعرفة امتداد الظل إلى النظر إلى الشمس باعتبارها دليلاً على الظل، وهكذا يكون الموقف الصحيح في معرفة الحقائق، وهو الارتباط بالأدلة القطعية الواضحة والتجرد من الإحساسات والتوهمات، ولعل ما يؤكد معنى الفرقان في الشمس هو أن موضوع سورة الفرقان نفسها هو الفرقان.

وعلامة الشمس دالة على حقيقة مهمة من حقائق الفعل الإلهي، وهي أن الله، عز وجل، إذا أراد إيجاد شيء أوجده لمقتضاه وبأسبابه، وإذا أراد عدمه أعدمه مقتضاه وأسبابه، فلما أراد الله خلق الإنسان خلقه لعبادته، وكانت العبادة هي سبب الخلق: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون}(الذاريات:56)، ولما أراد خلق الإنسان خلق له الأسباب المحققة لبقائه {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم}(البقرة:29)، فإذا أراد الله العدم للإنسان انعدم المقتضى «رفع الدين والعبادة»، وكتب العدم على أسباب

الإيجاد والبقاء، هذا بصفة عامة تصور عام للساعة وعلامات الساعة، ولكن التفصيل في العلامات هو التفسير المباشر لعلامة غياب الشمس والتوبة، ونقدم له بعدة أمثلة.

لما قدر الله، عز وجل، وضع الحرب وأوزارها عن البشر بقتل الدجال، امتد ذلك القدر إلى كل الواقع الكوني العام بأخص عناصره الدالة على العداء، فقال ﷺ: «حتى تلعب الأطفال مع الحيات، وحتى ترعى الذئاب مع الغنم»، «وترعى الذئاب مع الغنم»، لأن العلاقة بين الذئب والغنم هي مثال كوني للعلاقة بين الشيطان والإنسان، ولذلك قال ﷺ: «الشيطان ذئب الإنسان» [369].

فيلاحظ أن انعدام العداء في الواقع البشري أنهاه الله في أبرز أمثلة كونية له مثلما يقدر الله قبول التوبة على الإنسان، فينقلها في أبرز أمثلة كونية لها وهي الشمس، ولما قدر الله قتل الدجال استقدر الله إلى قتل اليهود، باعتبار أن اليهود هم أولياء الدجال من البشر.

ثم يمتد قدر قتل اليهود، وإلى الواقع الكوني العام ليقول الحجر والشجر: «يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ» [370]، حيث جاء العداء، كما أخبر القرآن الكريم: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:38) حيث قال ابن عباس: (اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً): آدم وحواء وإبليس والحية.

وبذلك تتحدد العلاقة بين قدر الله والإنسان والوجود الكوني إلى طبيعة الأمر المقدر في الإنسان، فإذا رجعنا إلى علامة الشمس لتفسير العلاقة بينها وبين انقطاع التوبة فسنجد تحقيق ذلك من خلال عدة قواعد قدرية:

---

(369) مسند أحمد بن حنبل برقم (21464).
(370) صحيح، أخرجه البخاري برقم: (2724).

أولاً: علاقة التوبة بالحركة الكونية، ودلالة الشمس على هذه الحركة.
ثانياً: دلالة حركة الشمس على معنى التوبة.
ثالثاً: اقتران غياب الشمس بانقطاع التوبة.

وهي الحقيقة المقصودة نهائياً، وفي العنصر الأول يراجع علاقة التوبة بالحركة الكونية، ودلالة الشمس على الحركة الكونية في (المضمون الإنساني)، وأما العنصر ثانياً، وهو دلالة حركة الشمس، حيث نشأت هذه الدلالة من شروق الشمس كل يوم بين قرني شيطان، ولكنها تغرب كل يوم تحت عرش الرحمن.

ومن هنا كانت بداية الشمس كل يوم شيطانية، حيث الخروج بين قرني شيطان والمشرق الذي أشار إليه الرسول ﷺ بالفتنة، حيث قال: «ألا إن الفتنة ههنا، وأشار إلى المشرق» [371].

من البداية الشيطانية والفتنة إلى السجود تحت عرش الرحمن في آخر سفرها اليومي كل مرة، ولعل وجود باب التوبة كما قال ﷺ يناسب المباعدة بين الشر والخير بأقصى درجة مباعدة، ومثلما كان لغياب العداء في الواقع الكوني لما قرر الله دفعه من الواقع البشري، مثالا هو رعي الذئاب مع الغنم، فكذلك يكون غياب الشمس مثال كوني لانقطاع التوبة عن الإنسان.

الشمس والتوبة

فالتوبة حقيقة قدرية تملأ الزمان والمكان، كما تملأ الرحمة الزمان والمكان، لأن التوبة أول دلائل الرحمة، والرحمة وسعت كل شيء.

ومن هنا كان ارتباط التوبة بالزمان والمكان، ودليل ذلك مقدمة سورة الزمر: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ

---

(371) صحيح، أخرجه مسلم (2905)

الْعَزِيزُ الْغَفَّار}(الزُّمَر:5)، فكان التعقيب على المعنى المقصود، لأن التعقيب جاء للدلالة على القدرة، لأن العزة هي تمام القدرة، والمغفرة هي تمام التوبة، ولذلك جاءت الأحاديث المثبتة لهذا الارتباط، وأهمها ارتباط المغفرة والتوبة بالليل والنهار، كما في حديث النزول: «ينـزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له» [372].
أما الحديث الآخر فهو قول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» [373].

ولما كانت الشمس هي المحور الأساسي للحركة الكونية في مجالها الإنساني كان الارتباط بين الشمس وقضية التوبة.

ولذلك كان لمعنى التوبة حقيقة الإسلام كله، وهذا ما قاله الإمام ابن تيمية، رحمه الله، «الإسلام هو التوبة كلها». حيث إن بقاء الإسلام يعني بقاء التوبة بالحركة الكونية هو التوافق الفطري بين طبيعة الكون وطبيعة الفطرة الإنسانية، وهو المعنى المأخوذ من قول الله: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ 30 مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِين 31 مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون 32 وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُون33} (الروم:30-33).

أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلوا بينهم وبين فطرتهم لما عدلت عن الإنابة، وقول الله تعالى: ﴿ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾،أي أن انكشاف الفطرة بمس الضر يكون بالإنابة إليه، ومن هنا كان الكون تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب، لأن طبيعة الإنابة والكون أقرب ما يكون في الإنسان، وذلك في قول الله تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

---

(372) صحيح البخاري (رقم 1094)، وصحيح مسلم (758)
(373) صحيح الجامع 1871

بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سورة ق:6-8).

والتوافق الطبيعي بين الكون والتوبة هو في ذاته دليل على التوافق بين الحركة الكونية وحقيقة التوبة، لأن الكون المتوافق في طبيعته مع التوبة متوافق في حركته، فالكون بحركته مسلم، ساجد لله، والتوبة حركة الإسلام والرجوع إلى الله، ومن هنا كان التعبير عن الارتداد بالحركة المعاكسة: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (النحل:92).

وليس عند ربك ليل ولا نهار، ولكنه الارتباط بين التوبة والزمان، ومن هنا كانت القاعدة العامة في العلاقة بين العبادات ومغفرة الذنوب هي العودة الزمنية لهذه العبادات وأهم ذلك: قول رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» [(374)]، وبذلك أصبح الزمن هو أول العلاقة بين الكون والتوبة.

ومن العبارة الأخيرة نلاحظ أنه كما كان الزمن الكوني زمناً للتوبة، كان الزمن التعبدي زمناً للتوبة أيضاً، لأن الأعمال التي يعود بها الزمن كلها عبادات.

ومن هنا كانت العبادة أصلاً في التوافق بين الكون والتوبة لأن العبادة هي غاية الحب مع مطلق الطاعة، وهو المعنى المقابل للنفاق لأن النفاق هو كراهية ما أنزل الله، ولذلك جاءت نتيجة كراهية ما أنزل الله هي النتيجة المقابلة للتوبة، وهي إحباط العمل، كما قال سبحانه:﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾(محمد: 9) وفي التهجد يتحقق غاية المحبة مع مطلق الطاعة، ومن هنا كان المتهجدون هم عباد الله في الزمان كله، وهم المتوافقون مع الإسلام

(374) صحيح الجامع رقم 3875

ليلاً ونهاراً، ولذلك يذكر الحديث كيف هؤلاء المتهجدين هم المدركين لعلامة الساعة.

باب التوبة

والأحاديث الواردة في باب التوبة نادرة العدد، ولكنها تعطي لباب التوبة قيمة عظيمة، ولكي نفهم هذه القيمة يجب أن نفهم معنى أبواب السماء، فمن أبواب السماء ما يفتح في أوقاتٍ محددة: مثل فتح أبواب الرحمة في رمضان [375]، ومن أبواب السماء ما يكون مفتوحاً، ولكن لا يرتفع إليه العمل، مثل حديث: «أَخِّرْهما حتى يصطلحا» [376].

ومن أبواب السماء ما يفتح لإنسانٍ دون آخر، مثل أبواب الرحمة التي سيكتبها الله للمتقين، ولكن باب التوبة هو الباب المفتوح دائماً لكل الخلق، ويعمهم نفعه دون استثناء، ولا يمنع عن الوصول إليه شيء حتى قيام الساعة، وكذلك يتميز باب التوبة عن هذه الأبواب جميعها بموقعه في الغرب، كما قال ﷺ: «إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة، مسيرته سبعون سنة، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من نحوه» [377]، وذكر القرطبي في تفسير الحديث: أن الباب قِبَل الشام خلقه الله – تعالى – يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً، وهذا الموقع الغربي من باب التوبة يعني التقابل التام بين التوبة وبين الفتنة والشر، حيث قال ﷺ وهو مستقبل المشرق: «ألا إن الفتنة ههنا، من حيث يطلع قرن الشيطان أو قرن الشمس» [378].

وباب التوبة دليل طبيعة التوبة في الوجود الكوني من الناحية المكانية، كما كان للتوبة اعتبارٌ من الناحية الزمنية وهو آخر الزمان، ذلك أن باب التوبة

---

(375) أخرجه النسائي في " الكبرى " في الصيام / باب: فضل شهر رمضان (ح 2409).

(376) (صحيح) أخرجه مسلم في باب النهي عن الشحناء والتهاجر (ح 2565)، وأبو داود (4916)، والترمذي (2023)، وابن ماجة (ح 1740) من حديث أبي هريرة.

(377) أخرجه الترمذي في الوضوء: باب: المسح على الخفين (1 / 159 / ح 96)، والنسائي في الطهارة: باب التوقيت في المسح على الخفين (1 / 1/ 83 – السيوطي)، وأحمد في " مسنده " (4 / 239) من زر بن حبيش، على صفوان بن عسال.

(378) تقدم تخريجه.

مخلوقٌ يوم خلق الله السماء والأرض بمسافة تقدر بمسيرة سبعين عاماً، وبذلك يثبت أن التوبة جزء من طبيعة وبناء هذا الكون، بل إن هناك حديثاً يثبت أن للتوبة فاعلية تغيير طبيعة وبناء هذا الكون، وهو حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ذلك أن الحديث يثبت أن الله، عز وجل، قد طوى لهذا الرجل الأرض شبراً.

الشمس وسورة التوبة

وسورة التوبة تناقش في جوهرها قضية التوبة، ولكن مناقشة سورة التوبة لقضية التوبة جاءت بصورة أساسية بحسب تصور علامة الشمس، فبدأت السورة بالبراءة من المشركين باعتبارهم نجساً، لا يحل لهم أن يقربوا المسجد الحرام، ولكن ذلك كان في فتح مكة، ولهذا الارتباط الزمني قيمة عظمى، ذلك أنه في فتح مكة أعلن رسول الله ﷺ بيان انضباط الزمان وعودته لما كان عليه منذ خلق الله السماوات والأرض.

وباعتبار ارتباط التوبة بالزمان منذ خلق الزمان بخلق السماوات والأرض، حيث خلق باب التوبة يوم خلق الله السماوات والأرض، كما ذكر الحديث، باعتبار ضبط الزمان وعودته لهيئته، حيث يذكر الحديث نصاً أن باب التوبة خُلق يوم خلق الله السماوات والأرض.

وسورة التوبة تفسر في الابتداء معنى التوبة، ولكن من خلال باب التوبة وعلامة الشمس، لأن معنى التوبة من خلال باب التوبة لها معنى إنساني كوني، يعني أن التوبة ضرورة إنسانية طبيعية لا يستثنى منها أحد، ولذلك جاء في السورة أن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً يوم خلق الله السموات والأرض، ولذلك أوردت سورة التوبة أصنافاً من الناس يتصور ألا تبلغ هذا المقام مهما كان ولن ينالها، لأن الأعمال المنسوبة إليهم هي التي تجعل الظن يغلب لهذا التصوير ومن هذه الأصناف: المشركين، وفيهم يقول الله عز وجل: (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة:5)، وفي أعمالهم جاء قول الله: (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) (التوبة:10)، ثم تتوالى الآيات، فتنسب إليهم نكث الإيمان والطعن في الدين والهمّ بإخراج الرسول ﷺ ثم تقول الآيات: (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:15)، وكذلك الكافرين والمنافقين في الآية: (73، 74)، وفي المقابل يرد الله – سبحانه – في سورة التوبة على مَن يتصور تجاوز مقام التوبة وعلى رأسهم النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:117).

ليحقق هؤلاء الكرام التوبة كضرورة إنسانية يحسم النبي ﷺ معناها قائلاً: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [379].

التوبة والعهد

ثم إن الآيات بعد ذلك تناقش كل جوانب قضية التوبة، فتناقش الآية علاقة التوبة بمعنى العهد، لأن التوبة والعهد هما الإسلام، فالعبد الذي يفي بعهده مع البشر هو الذي يفي بعهده مع الله، والذي يفي بعهده مع الله هو التائب. المستغفر، كما قال ﷺ: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [380].

وما يؤكد العلاقة بين التوبة والعهد هو أن التوبة هي الرجوع إلى عهد الله الوارد في قوله سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(379) صحيح البخاري 6307
(380) صحيح البخاري 6323

إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) (الأعراف:172-173)، ولذلك جاء في الآية التي بعدها: (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف:174).

يقول الإمام ابن القيم في تعريف التوبة: «هي الرجوع إلى الحق وفاءً كما رجع إليه عهداً، أي مثل الرجوع إلى الله حسب الميثاق، فطرياً وبالاضطرار، أي أن التوبة هي الرجوع إلى الله بالعمل والاختيار» [381].

التوبة والجهاد والهجرة

كما جاء في السورة ذكر القضايا الأساسية المتعلقة بالحركة الكونية والتوبة في وقتٍ واحد، ويمكن صياغة هذه القواعد في قول رسول الله ﷺ: «الهجرة باقية ما بقيَ الجهاد، والجهاد باقٍ ما بقيت التوبة، والتوبة باقية حتى تشرق الشمس من مغربها»، فالهجرة، وهي الحركة البشرية المكانية، هي في نفس الوقت لها معنى التوبة، كما قال ﷺ: «المهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه»[382]، ولكن للهجرة معنىً للتوبة آخر، لا يقل أهمية عن المعنى الأول، وهو أن اتساع معنى التوبة للمكان كما اتسعت للزمان، يعني أن التوبة قد تكون مقدرة في مكان بعيد عن العبد، فعليه أن يسعى إلى ذلك المكان ليعبد الله، ولا يشرك به شيئاً، وهذا معنى قوله سبحانه: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت:56) ليدل مجموع النصوص على أن معنى العبادة يعم الأرض، كما يعمها معنى التوبة.

ولعل هذا الارتباط هو الحكمة التي قادت العالِم إلى أن ينصح قاتل المائة نفس إلى أن يهاجر إلى بلدٍ آخر، وإثباتاً لدقة هذا الارتباط كان لبقية الحديث الذي أثبت فيه رسول الله ﷺ أن الله قد طوى لهذا الرجل الأرض شبراً ليكون أقرب إلى أرض التوبة، لتقبض روحه ملائكة الرحمة.

---

(381) مدارج السالكين.
(382) المحلى لابن حزم ومجموع الفتاوى لابن تيمية.

وبقاء الهجرة يعني وجود بقاع على الأرض يشغلها الكافرون، وهذا هو المعنى الموجب للجهاد، لأن الجهاد باقٍ ما بقي العداء، والعداء باقٍ ما بقي الكفر، ومن هنا كانت الهجرة باقية ما بقي الجهاد.

التوبة والنفاق

ومن هنا أيضاً كانت المناقشة المستفيضة في سورة التوبة لقضية الجهاد، ومما لا شك فيه أن قضية الجهاد وقضية الهجرة حركتان في اتجاه التوبة، متفقتان في هذا الاتجاه مع الحركة الكونية، وهي حركة العبادة لله، تبارك وتعالى، ولذلك جاء في السورة ذكر المنافقين، الذين يعاكسون تلك الحركة، وهذا الاتجاه في باطنهم، ويتوافقون معها في ظاهرهم، لذا شغلت حركة النفاق آيات كثيرة من سورة التوبة، حتى أن موقف النفاق يكتمل ظهوراً ووضوحاً على الصراط من خلال تواجدهم الظاهر مع المؤمنين فوق الصراط، وذلك باعتبار ظاهرهم الذي هم عليه، ثم انكشاف باطنهم فوق هذا الصراط، وهذا تفسير قول الله، تبارك وتعالى، : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ (الحديد:13).

وسبحان الله القدير، إذ كانت حركة النفاق هي الحركة المضادة تضاداً كاملاً للجهاد والهجرة، ومراجعة السيرة تجعل أمامنا هذه الظاهرة أقوى ما تكون، وأخطر ما تكون، وعلى سبيل المثال حركة عبد الله بن أُبي بن سَلول، الذي عاد بثلث الجيش في إحدى غزوات النبي ﷺ.

ولعل أبرز أمثلة التقابل والتضاد بين حركة الجهاد من ناحية، وحركة النفاق من ناحية أخرى هو نقطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث وردت كنقطة تقابل وتعاكس بين الحركتين، كما في قوله – سبحانه وتعالى – في المنافقين:
(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(التوبة:67)، وقال تعالى في المؤمنين: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:71).

ومن هنا جاء النفاق كحركة مضادة للطاعة الكاملة الصحيحة: (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء:81).

وبعد مناقشة السورة لظاهرة النفاق باعتبارها حركة معاكسة للجهاد والهجرة تناقش السورة ظاهرة النفاق باعتبارها الحركة المعاكسة للتوبة، وذلك من خلال قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تمثل الحركتين التوبة والنفاق، وذلك كما جاء في السورة عن توبة التائبين باعتبارها أولى صفات الإيمان: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (التوبة:112).

ثم جاء عن النفاق والمنافقين قول الله، عز وجل: (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (التوبة:67)، والفاسقون هنا تحمل معنى الخروج المطلق ليشمل الخروج عن حدود الإيمان، وأحكام الشريعة، وكذلك الخروج عن طبيعة التوبة، والوجود الكوني وحركته.

إن ارتباط التوبة بالحركة الكونية باعتبارها إلى الله رجوع إلى الله يعين أن البعد عن الله حركة عكسية، وقد تحددت في الصورة أفعال كثيرة لها هذه الصفة العكسية ولعل أهمها قول الله عز وجل: (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) (التوبة:12)، وقوله: (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ

وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (التوبة:13).

وقد تكرر هذا التعبير في سور أخرى، ولكن الوحدة الموضوعية بين السور كانت قائمة بمناسبة هذا التعبير.

ومثال سورة الفتح وهي أخت سورة التوبة من الناحية الموضوعية، كان في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح:10)وفي سورة النحل: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (النحل:92).

التوبة والصدقة

ومن هنا كانت الصلة بين التوبة والصدقة في قول الله في سورة التوبة (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة:104).

وكان الارتباط بين الصدقة والتوبة في قبول الله لهما، كما في حديث رسول الله ﷺ: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان» [(383)].

وارتبطت التوبة والصدقة بالقبول بالنسبة للإنسان في آخر حياته، فهو ما قبل بلوغ الروح الحلقوم أو التراقي، ارتبطت أيضاً بالنسبة لآخر الزمان، حتى أنه عندما يكون آخر الزمان لا يجد الرجل من يقبل صدقته، ويغلق باب التوبة، كما قال ﷺ: «تصدقوا فسيأتي على الناس زمان يمشي الرجل

(383) صحيح البخاري 1419

بصدقته فلا يجد مَن يقبلها» [384]، وقال أيضاً ﷺ: «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال» [385].

قال ابن حجر: «وأما فيض المال الذي يقع في زمن عيسى، عليه السلام، فسببه كثرة المال، وقلة الناس واستشعارهم بقيام الساعة».

كما أن العلاقة بين الصدقة والتوبة تمتد إلى الشمس من خلال العرش، ذلك أن سجود الشمس تحت العرش يعني بقاء باب التوبة مفتوحاً، وعندما تشرق الشمس – بعد الإذن لها بالسجود تحت العرش – يكون دعاء الملائكة: «ملَكاً يقول: اللهم أعط مُنفقاً خلفاً، وملَكاً يقول: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً» [386]، فإذا عم الإمساك والقبض عن المنفعة للبشر جميعهم فإن هذا يعني أن يعم التلف الوجود البشري.

ومن هنا جاء في سورة التوبة المعالجة التامة لظاهرة الشح، فقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة:34).

وقال: (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (التوبة:75-76).

إن التصور الكوني عن التوبة كان أساساً في ذكر أقوى أسلوب بشري له فاعليته الكونية، وذكر العلاقة بين هذا السلوك والتوبة، ومن هنا نتبين طبيعة التجانس بين التوبة من ناحية، والكون من ناحية أخرى، لأن الصدقة حققت أكبر فاعلية في الوجود الكوني.

---

(384) صحيح البخاري 7120
(385) صحيح البخاري 3448
(386) صحيح أخرجه البخاري في الزكاة / باب (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) (3 / 357 / خ 1442) ومسلم في الزكاة / باب: في المنفق والممسك (1/ 404) من حديث أبي هريرة.

التوبة والطهارة

ولعل اشتراط الطهارة في التائب، لأن الطهارة نظافة حسية مقرونة بنظافة العبد من الذنوب، ومن هنا كان الاغتسال عند التوبة.

ومن هنا كان الاقتران بين التوابين والمتطهرين في قوله، سبحانه، في سورة البقرة: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة:222).

وقول النبي ﷺ: «اللهم اقبل توبتي واغسل حَوبتي»(387)، فشرط الطهارة متعلق بالتوبة، من ناحية أن التوبة قبول من الله للناس، لذا كان لابد أن يكون التائب طيباً، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً 388، كما قال رسول الله ﷺ ومن هنا كانت الطهارة من أهم قضايا العبودية، مثل تطهير المسجد الحرام من المشركين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة:28).

التوبة والفتنة

إن الطاعة والعبادة هي المقابل الحقيقي للفتنة، أما موقف الطاعة الذي في حديث الرجل الساجد فيحدد قيمة الطاعة في مواجهة الفتنة.

إن التصنيف الذي كتب به الإمام البخاري تحدَّد على أساس حقائق كلية في هذا الدين، ولذا كان من الاعتبار في هذا التصنيف أن يكون كتاب الأحكام،

---

(387) أخرجه أبو داود في الصلاة: باب الوتر (ح / 1510)، والترمذي / في الدعوات (ح / 3551)، وابن ماجة في الدعاء (ح / 3830)، وأحمد (1 / 227).

(388) أخرجه مسلم في الزكاة / باب الحث على الصدقة (3 / 7)، والترمذي (ح / 2989)، وأحمد (2 / 328) من حديث أبي هريرة.

أي أحكام الطاعة، بعد كتاب الفتن.

إن حركة النفاق هي الضد الكامل للطاعة، كما قال سبحانه: (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء:81).

وقال: (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) (التوبة:126).

وأخيراً فإن أهم مقتضيات تفسير العلاقة بين حقيقة التوبة وطبيعة الحركة الكونية هو أن التوبة تملأ الزمان والمكان، لأن الكون وحركته هو كل الزمان والمكان.

وباعتبار أن الحركة الكونية بطبيعتها هي القرينة الدالة على التوبة، وباعتبار أن الشمس هي القرينة الدالة على الحركة الكونية بالنسبة للإنسان، كان معنى توقف الشمس واضحاً للدلالة على انقضاء زمن التوبة بالنسبة للإنسان.

وإذا كان النبي ﷺ يضرب لنا للأمور الاعتقادية الضخمة أمثلة كونية يسيرة، مثل اللبن الدال على الفطرة كعنصر كوني؛ فإن النبي ﷺ قد ضرب لنا مثلاً للتوبة بفعل بشري، وهو السفر والرجوع منه إلى البيت؛ فقال ﷺ: «آيبون تائبون عابدون إلى ربنا راجعون» [389]، فكان الارتباط بين معنى الرجوع إلى البيت والرجوع إلى الله، وهو معنى التوبة.

بهذا التصور يمكن أن نفهم أن الشمس تكون أعظم مثل كوني على التوبة؛ فهي تشرق في الصباح بين قرني شيطان، وتسجد في المساء تحت عرش الرحمن، فلا يمر يومٌ إلا بالسجود لله تبارك وتعالى والرجوع إليه تحت عرشه، بعد سفرها الذي يبدأ بالشروق بين قرني الشيطان، ولهذا تمتنع هذه

---

(389) أخرجه مسلم في الحج، رقم (111)، وأبو داوود، باب ما يقول الرجل إذا سافر (2599).

السجدة عن الشمس عند انقطاع التوبة: «فلا يؤذن لها بالسجود» الحديث (390).

إن انقطاع التوبة بغياب الشمس يعبر، في حقيقته، عن الحكمة التي تدور عليها كل أفعال الله، سبحانه وتعالى، ولعل أقرب الأفعال في مجال العلامات القريبة من هذه الحكمة هو رفع العلم بموت العلماء، لأن هذا يعني أن تنقطع أسباب الخير عند انقطاع الخير نفسه، لأن الأسباب في الخير هي من الخير نفسه، كذلك تنقطع الدلائل التي تدل على هذا الخير، ومنها القرائن التي تدل عليه كذلك باعتبارها من هذه الدلائل.

ولقد ضربنا مثلاً بالسبب، ونضرب مثلاً جامعاً للقرائن، وهو ما سيكون من قتل اليهود بعد قتل الدجال، إذ إن اليهود كانوا سبباً أصلياً في عُلو الدجال، وكانوا قرائن له عند ظهوره، ومن هنا كان قتل اليهود قدَراً مرتبطاً بالدجال.

---

(390) تقدم تخريجه.

تم بحمد الله

كتب للمؤلف

1-التصور السياسي للحركة الإسلامية
2-المسيح .. دراسة سلفية
3-عندما ترعى الذئاب الغنم
4-أصحاب الأخدود
5-قدر الدعوة
6-حكمة الدعوة
7-بيت الدعوة
8-في النفس والدعوة
9-علم الحديث منظور إعجازي
10- علامات الساعة
11- علم المناسبة
12- عمر بن الخطاب
13- الإسراء
14- كتاب دلائل النبوة
15- الأذكار
16- كيف تحدث الرسول ﷺ

الفهرس

تمهيد 2

الباب الأول: تأصيل معنى العلامة من حيث علاقتها بأفعال الله الجامعة

الفصل الأول 12
علاقة علامات الساعة بمعنى الحكمة 13
علاقة علامات الساعة بمعنى الرحمة 15
علاقة علامات الساعة بمعنى الإحسان 17
علاقة علامات الساعة بمعنى الخير 19
علاقة علامات الساعة بمعنى الحق 22
علاقة علامات الساعة بمعنى العدل 24
فعل «الجمع الإلهي» في العلامات 25
الفصل الثاني 27
التجانس 28
التعاظم 29
التقسيم صغرى وكبرى.. 29
حساب الزمن 30
الإنذار 32
الإنهاء بالإعادة...32
البغت «الفجائية» 33

الباب الثاني: التصور المنهجي للعلامات

أولاً: المهدي 35
خلافة قبل المهدي...41
ثانياً: الدجال: 43
جفاف نخل بيسان 45
جفاف بحيرة طبرية 46
الخروج من غضبة 46

الخروج في كذب 47
الدجال والملح 48
الدجال والدخان 50
عيسى والدجال 55
نسل إسماعيل والدجال 56
الدجال وابن صياد 58
اختلاف أقوال العلماء في ابن صياد 69
ثالثاً: عيسى ابن مريم 62
رابعاً: يأجوج ومأجوج 66
يأجوج ومأجوج والتتار 71
دلالات يأجوج ومأجوج على طبيعة الفتنة 74
إخراج الأرض بركاتها 76
خامساً: الدابة 77
آيات الدابة 80

الباب الثالث: التصور المنهجي العام

الفصل الأول: المضمون الإنساني للعلامات 84
المستوى الفردي للعلاقة بين الإنسان وبين علامات الساعة 84
رفع الأمانة والعلم وارتباطه بالوجود الإنساني 85
المستوى البشري للعلاقة بين الإنسان وبين علامات الساعة 87
المستوى الفردي والبشري للارتباط بين الطبيعة الإنسانية والعلامة...... 89
محور العبادة 89
محور القتال 91
محور الحكم 92
البدء والإعادة 93
الفصل الثاني: أسلوب عرض الوحي لعلامات الساعة 96
ترتيب العلامات 97
دلالة الألفاظ 101
التكرار 105

التفصيل 105
الإجمال 106
التناسب بين الخبر وحال النبي أثناء الإخبار 106
القرائن الحسية 108
التأييد بالرؤية المباشرة 110
التوازن بين الطمأنة والتحذير في عرض النبي للعلامة.............. 112
إسقاط العلامة على الواقع 114

الباب الرابع: التصور المنهجي القرآني

الأساس القرآني العام للعلامات 117
سورة الدخان والدجال 118
سورة الأنبياء ويأجوج ومأجوج 148
عناصر الامتداد البشري الكافر 151
استقرار الوحي وثباته في الواقع البشري 153
وحدة الأنبياء 154
أخلاق الامتداد 154
ترتيب الأنبياء في السورة.................................... 155
الكثرة.. 156
الحفظ الكوني العام.. 157
سورة النمل وعلامة الدابة 158
ذكر موسى عليه السلام... 159
داود وسليمان والدابة.. 161
سليمان والدابة.. 164
العلاقة بين سليمان وملكة سبأ، وبين الدابة......................... 166
ثمود وقوم صالح والدابة.. 168
قوم لوط والدابة.. 169
ذكر النبي ﷺ والدابة.. 169
بنو إسرائيل والدابة.. 173
سورة التوبة وعلامة الشمس 179

الشمس والدابة...179
الشمس والتوبة……………………………………………182
باب التوبة ……………………………………………185
الشمس وسورة التوبة...186
التوبة والعهد…………………………………………187
التوبة والجهاد والهجرة……………………………188
التوبة والنفاق…………………………………………189
التوبة والصدقة………………………………………191
التوبة والطهارة………………………………………193
التوبة والفتنة…………………………………………193
الفهرست 198